العدوان على العربية عدوان على الإسلام

دار الأدب الإسلامي
للنشر والتوزيع

العدوان على العربية
عـــدوان على الإســــلام

عنوان الكتاب: العدوان على العربية عدوان على الإسلام
المؤلف: الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا
اعتنى به: بشار بن عبد الرحمن الباشا
الغلاف: بشار
الإعداد الفني والتنضيد الضوئي: دار الأدب الإسلامي

الطبعة الثانية: ١٢/٣/٢٠٠٥ م
رقم الإيداع: ٣٧٣٣/٢٠٠٥
I.S.B.N.: 977-5827-11-6

ILH
Islamic Literature House
For P. P. & Distr.

ص. ب: ٨١ - بريد بانوراما ١١٨١١ القاهرة
جمهورية مصر العربية
هاتف وناسوخ: ٥١٤٧٦٢٦ (٢) ٢٠+
جوّال: ٥١٠٥٥٧٧ (١٠) ٢٠+
P.O.Box:81-Panorama 11811
Cairo - Egypt
Tel.&Fax: + 20(2)5147626
Moh.: + 20(10)5105577
E.Mail: ilhonline@yahoo.com
Website: www.ilhonline.com

تصديـــر

الحمد للّه، والصّلاة والسّلام علىٰ رسول اللّه...

أمّا بعد:

فمن آن لآخر تطلق حول العربيّة شبهات، وتتعالىٰ دعوات؛ عدّتها الافتراء وعتادها التّشكيك؛ تحت ستار الإصلاح والتّجديد...

وكان حملة شعلة القرآن ولغته؛ يقفون عبر الزّمان والمكان كالبنيان المرصوص؛ لصدّ ذلك العدوان... ومن بين هؤلاء الدّكتور عبد الرّحمٰن رأفت الباشا - رحمه اللّه - والّذي كان من ثمرات جهده هٰذا الكتيب.

حيث عرض فيه ادعاءات المشككين بلغة القرآن كما أرادها أربابها؛ بعد أن تتبع دعواتهم، وكشف مكنون شبهاتهم... ثم برع في تفنيدها وبيان زيفها؛ بمنهج علمي منطقي، وبعبارة موجزة، وأسلوب شيّق...

وقد ختم المؤلف ـ رحمه اللّه ـ هٰذا الكتيب بتوصيات تحت عنوان « حق أبنائنا علينا » .

ورأيت تعميمًا للفائدة وتدعيمًا للدّفاع عن لغتنا ؛ أن أُلحق في نهاية هٰذه الطّبعة الأسئلة الّتي تم رفعها إلىٰ الدّكتور الباشا ـ رحمه اللّه ـ في النّدوة الأدبيّة العلميّة الّتي عُقدت في كليّة اللّغة العربيّة بالرّياض ، وإجابته عليها ؛ لعلاقتها الوثيقة بموضوع الكتيب ... فهي بمثابة الإجمال بعد التّفصيل .

راجين اللّه عزّ وجلّ أن ينفع بها .

واللّه من وراء القصد ...

فهو الّذي يهدي الخطىٰ ويسدّد السّبيل .

يمان بن عبد الرّحمٰن الباشا

إِهْـدَاءُ

• إِلَىٰ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ وَحُمَاةِ اللُّغَةِ .

• إِلَىٰ الْمُرَابِطِينَ الَّذِينَ يُذْرِكُون أَنَّهُمْ مُرَابِطُونَ .

• إِلَىٰ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ شُعْلَةَ الْقُرْآنِ وَفُصْحَاهُ ، وَيَقِفُونَ بِهَا فِي مَهَابِّ الرِّيحِ فِي كُلِّ مَكَانٍ .

• إِلَىٰ الَّذِينَ هُمْ قَلِيلٌ فِي نَهَارِ أُمَّتِهِمُ الْبَاسِمِ ، كَثِيرٌ فِي لَيَالِيهَا الْحَالِكَةِ .

• إِلَىٰ الَّذِينَ قَدْ عَقَدُوا الْعَزْمَ عَلَىٰ أَنْ يُعِيدُوا لِأُمَّتِهِمْ ثِقَتَهَا بِنَفْسِهَا ، وَبِتُرَاثِهَا ، وَبِدِينِهَا ، وَبِلُغَتِهَا بَعْدَ أَنْ خَامَرَهَا الشَّكُّ فِي كُلِّ ذَلِكَ .

• إِلَىٰ كُلِّ هَؤُلَاءِ أُهْدِي هَـٰذِهِ الْكَلِمَةَ .

عبد الرحمن رأفت الباشا

قِيمَةُ اللُّغَةِ
فِي حِفْظِ كِيَانِ الْأُمَمِ

قَالَ الثَّعَالِبِيُّ[(١)] :

« مَنْ أَحَبَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ ؛ أَحَبَّ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ،

وَمَنْ أَحَبَّ الرَّسُولَ الْعَرَبِيَّ ؛ أَحَبَّ الْعَرَبَ ،

وَمَنْ أَحَبَّ الْعَرَبَ ؛ أَحَبَّ الْعَرَبِيَّةَ الَّتِي نَزَلَ بِهَا أَفْضَلُ الْكُتُبِ عَلَىٰ أَفْضَلِ الْعَجَمِ وَالْعَرَبِ ،

وَمَنْ أَحَبَّ الْعَرَبِيَّةَ ؛ عُنِيَ بِهَا وَثَابَرَ عَلَيْهَا ، وَصَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَيْهَا ،

---

(١) هو عبد الملك بن محمد « أبو منصور » من أئمة اللغة والأدب من أهل « نيسابور » من أرض « خراسان » ، كان فراء يخيط جلود الثعالب فنسب إِلَىٰ صناعته ، واشتغل بالأدب والتاريخ ... وله كثير من المؤلفات ، تُوفي سنة ٤٢٩هـ .

وَمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَشَرَحَ صَدْرَهُ لِلْإِيمَانِ ...
اعْتَقَدَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرُ الرُّسُلِ ،
وَالْإِسْلَامَ خَيْرُ الْمِلَلِ ،
وَالْعَرَبَ خَيْرُ الْأُمَمِ ،
وَالْعَرَبِيَّةَ خَيْرُ اللُّغَاتِ وَالْأَلْسِنَةِ ،
وَالْإِقْبَالَ عَلَىٰ تَفَهُّمِهَا مِنَ الدِّيَانَةِ ؛ إِذْ هِيَ أَدَاةُ الْعِلْمِ ،
وَمِفْتَاحُ التَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ »[١].

وَلَقَدْ كَانَتْ أَرْضُ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ مَنْبِتًا لِلْعَرَبِيَّةِ مُنْذُ الْقِدَمِ ، وَمَوْئِلًا[٢] لِلْقُرْآنِ مُنْذُ هَلَّ الْقُرْآنُ بِنُورِهِ عَلَىٰ الْأَرْضِ ، وَسَتَبْقَىٰ - بِإِذْنِ اللَّهِ - حِصْنًا مَنِيعًا لِذَلِكَ الْكِتَابِ وَلُغَتِهِ ؛ تَحْمِيهَا مِنْ عُدْوَانِ الْعَادِينَ ، وَتَصُونُهَا مِنْ كَيْدِ الْكَائِدِينَ إِلَىٰ أَنْ يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا .

* * *

(١) من مقدمة كتابه « فقه اللغة » .
(٢) مَوْئِلًا : ملاذًا ومرجعًا .

وَبَعْدُ ... فَمَا أَهَمِّيَّةُ هَـٰذِهِ اللُّغَةِ الَّتِي بَذَلَ لَهَا أَسْلَافُنَا مَا بَذَلُوا ، وَجَاهَدُوا مِنْ أَجْلِ حِفْظِهَا وَبَقَائِهَا مَا جَاهَدُوا ، فَضَرَبُوا إِلَيْهَا أَكْبَادَ الْإِبِلِ ؛ لِيَتَنَاقَلُوهَا بِالرِّوَايَةِ ...

وَأَرَاقُوا عَلَىٰ عَتَبَاتِهَا نُورَ عُيُونِهِمْ ؛ لِيَحْفَظُوهَا بِالتَّدْوِينِ ... وَتَبَتَّلُوا[1] لَهَا مَا تَبَتَّلُوا ؛ لِيَجْمَعُوهَا فِي الْمُعْجَمَاتِ الَّتِي تَحْفَظُ مُتُونَهَا ، وَيَحُوطُوهَا بِالْقَوَاعِدِ الَّتِي تَضْبِطُ نِظَامَهَا ، وَيُثَبِّتُوهَا فِي آلَافِ آلَافِ الْكُتُبِ الَّتِي تَضُمُّ شِعْرَهَا وَنَثْرَهَا ... ثُمَّ اسْتَقَلُّوا ذَلِكَ كُلَّهُ فِي جَنْبِ هَـٰذِهِ اللُّغَةِ الْكَرِيمَةِ .

مَا قِيمَةُ هَـٰذِهِ اللُّغَةِ الَّتِي نَفْسَحُ لَهَا الْيَوْمَ مَجَالًا رَحِيبًا فِي مَدَارِسِنَا وَمَعَاهِدِنَا وَكُلِّيَّاتِنَا ، وَنُخَصِّصُ لَهَا وَقْتًا طَوِيلًا فِي خُطَطِنَا وَمَنَاهِجِنَا ، وَنُعْطِيهَا نَصِيبًا كَبِيرًا مِنْ جُهْدِ أَبْنَائِنَا وَبَنَاتِنَا ؟ ...

---

(١) تبتلوا : تفرغوا وأعطوا الشيء كل اهتمامهم .

إِنَّهَا لُغَتُنَا الَّتِي حَفِظَتْ عَلَيْنَا شَخْصِيَّتَنَا عَبْرَ التَّارِيخِ ... وَرَبَطَتْ شُعُوبَ أُمَّتِنَا بِرِبَاطِهَا الْوَثِيقِ ...

وَقَرَّبَتْ بَيْنَ أَمْزِجَةِ مُوَاطِنِينَا وَمَشَاعِرِهِمْ ، وَوَاءَمَتْ بَيْنَ تَقَالِيدِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ .

وَهِيَ الْحِصْنُ الَّذِي لَاذَ بِهِ الْعَرَبُ طَوَالَ خَمْسَةَ عَشَرَ قَرْنًا ؛ فَصَانَ كِيَانَهُمْ مِنْ أَنْ يَتَمَزَّقَ ، وَحَفِظَ شَمْلَهُمْ مِنْ أَنْ يَتَفَرَّقَ ... وَوَحَّدَ كَلِمَتَهُمْ عَلَىٰ دَفْعِ الْعُدْوَانِ كُلَّمَا تَعَرَّضُوا لِلْعُدْوَانِ .

وَهِيَ فَوْقَ ذَلِكَ كُلِّهِ ؛ لُغَةُ قُرْآنِنَا الْعَظِيمِ ، وَوِعَاءُ دِينِنَا الْقَوِيمِ ، وَمُسْتَوْدَعُ حَضَارَتِنَا الزَّاهِرَةِ ، وَخِزَانَةُ تُرَاثِنَا الرُّوحِيِّ وَالْعَقْلِيِّ .

* * *

وَلَيْسَتْ لُغَتُنَا أَيُّهَا السَّادَةُ بِدْعًا فِي حِفْظِ كِيَانِ الْأُمَمِ ، وَجَمْعِ شَمْلِ الشُّعُوبِ ... وَإِنَّمَا هُوَ شَأْنُ اللُّغَاتِ

جَمِيعًا ... فَنَحْنُ إِذَا اسْتَعْرَضْنَا طَائِفَةَ الْأُمَمِ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي أُورُبَّا ؛ وَجَدْنَا أَثَرَ اللُّغَةِ فِي ظُهُورِهَا جَلِيًّا وَاضِحًا .

فَهَـٰذِهِ « أَلْمَانْيَا » كَانَتْ إِلَىٰ الْقَرْنِ التَّاسِعَ عَشْرَ مُقَاطَعَاتٍ مُتَفَرِّقَةً مُتَنَابِذَةً مُتَنَافِرَةً ، لِكُلِّ مُقَاطَعَةٍ أَمِيرٌ ، وَلِكُلِّ أَمِيرٍ نِظَامٌ ، وَلِكُلِّ نِظَامٍ حُكُومَةٌ ...

وَظَلَّ الْأَمْرُ كَذَلِكَ حَتَّىٰ شَعَرَ قَادَةُ الْفِكْرِ فِي « أَلْمَانْيَا » بِقُدْرَةِ اللُّغَةِ عَلَىٰ جَمْعِ الْأَشْتَاتِ إِلَىٰ الْأَشْتَاتِ ، وَتَوْحِيدِ الْأَصْوَاتِ مَعَ الْأَصْوَاتِ ...

فَهَبَّ « هِرْدِرْ »(١) فِي النِّصْفِ الثَّانِي مِنَ الْقَرْنِ الثَّامِنَ عَشْرَ يُنَادِي : بِأَنَّ اللُّغَةَ هِيَ الْأَسَاسُ الَّذِي تُرْسَىٰ عَلَيْهِ دَعَائِمُ الْوَحْدَةِ ، وَالنَّوَاةُ الَّتِي تَتَجَمَّعُ حَوْلَهَا الشُّعُوبُ .

وَلَاقَتْ دَعْوَتُهُ هَـٰذِهِ هَوًى فِي نُفُوسِ أُدَبَاءِ الْحَرَكَةِ

---

(١) هِرْدِر Herder: « ١٧٤٤ ـ ١٨٠٣م » أديب ألماني له تأثير كبير علىٰ نشأة حركة « العاصفة والاندفاع » الأدبية .

الْإِبْدَاعِيَّةِ فِي « أَلْمَانِيَا » ، فَعَكَفُوا عَلَىٰ تُرَاثِهِمُ الْقَدِيمِ أَيَّامَ كَانَتْ أُمَّتُهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ... وَاتَّخَذُوا مِنْ مَآثِرِ أَسْلَافِهِمْ مَادَّةً خِصْبَةً لِأَدَبِهِمْ ، وَمِنْ بُطُولَاتِ قَادَتِهِمْ مَوْضُوعَاتٍ مُثِيرَةً لِشِعْرِهِمْ ...

وَنَسَجُوا حَوْلَ ذَلِكَ قَصَصًا رَائِعَةً هَوَتْ إِلَيْهَا أَفْئِدَةُ الشَّبَابِ ، وَقَصَائِدَ بَارِعَةً مَلَكَتْ أَلْبَابَ الْفِتْيَانِ وَالْفَتَيَاتِ ...

وَالْتَفَتُوا إِلَىٰ طَبِيعَةِ بِلَادِهِمْ فَتَغَنَّوْا بِجَمَالِهَا السَّاحِرِ ، وَأَبْرَزُوا فِتْنَتَهَا الْأَخَّاذَةَ ... فَشَعَرَ الْأَبْنَاءُ بِمَفَاخِرِ الْآبَاءِ ، وَتَجَمَّعَتِ الْعَوَاطِفُ عَلَىٰ حُبِّ الْوَطَنِ الْكَبِيرِ .

وَقَامَ فِي هَٰذِهِ الْمُقَاطَعَاتِ ، مُجْتَمَعٌ « أَلْمَانِيٌّ » مُوَحَّدُ الْمَشَاعِرِ وَالْغَايَاتِ ، مُتَطَلِّعٌ إِلَىٰ الِانْضِوَاءِ تَحْتَ لِوَاءٍ وَاحِدٍ ، مِمَّا مَهَّدَ الطَّرِيقَ أَمَامَ « بِسْمَارْك »(١) لِتَعْبِئَةِ

---

(١) بسمارك Bismarck: «١٨١٥ - ١٨٩٨م» أصبح أول مستشار «أو رئيس وزارة» للإمبراطورية الألمانية.

الشُّعُورِ الْقَوْمِيِّ، وَدَفْعِ الْأُمَّةِ «الْأَلْمَانِيَّةِ» نَحْوَ الْوَحْدَةِ الْكُبْرَىٰ الَّتِي تَمَّتْ عَلَىٰ يَدَيْهِ.

* * *

عَلَىٰ أَنَّ هُنَاكَ مَثَلًا أَعْظَمَ مِنَ الْمَثَلِ السَّابِقِ فِي الْإِبَانَةِ عَنْ أَثَرِ اللُّغَةِ فِي إِحْيَاءِ الْأُمَمِ، وَحِفْظِهَا مِنَ التَّمَزُّقِ وَالضَّيَاعِ... ذَلِكُمُ الْمَثَلُ، هُوَ «إِيرْلَنْدَا» الَّتِي رَزَحَتْ تَحْتَ وَطْأَةِ الِاحْتِلَالِ «الْإِنْكِلِيزِيِّ» مُنْذُ أَوَائِلِ الْقَرْنِ الثَّانِيَ عَشَرَ الْمِيلَادِيِّ، وَذَاقَتْ مِنْ وَيْلَاتِهِ مَا لَمْ يَذُقْهُ مُسْتَعْمَرٌ مِنْ مُسْتَعْمِرٍ قَطُّ.

فَلَقَدْ أَعْمَلَ «كُرُومُويل»(١) السَّيْفَ فِي رِقَابِ «الْإِيرْلَنْدِيِّينَ»، وَجَمَعَ عِشْرِينَ أَلْفًا مِنْ شَبَابِهِمْ وَبَاعَهُمْ عَبِيدًا فِي «أَمْرِيكَا»، وَنَفَىٰ أَرْبَعِينَ أَلْفًا مِنْ رِجَالِهِمْ خَارِجَ الْبِلَادِ...

---

(١) أوليفر كرومويل Oliver Cromowell: «١٥٩٩ ـ ١٦٥٨م» زعيم سياسي وعسكري إنكليزي هزم الملكيين وأعلن الجمهورية سنة «١٦٥٣م».

وَسَعَىٰ هُوَ وَمَنْ تَلَاهُ فِي الْحُكْمِ لِمَحْوِ شَخْصِيَّةِ « إِيرْلَنْدَا » بِالْقَضَاءِ عَلَىٰ لُغَتِهَا... حَتَّىٰ تَمَّ لِلْإِنْكِلِيزِ مَا أَرَادُوا وَانْدَثَرَتِ اللُّغَةُ « الْإِيرْلَنْدِيَّةُ » ، وَغَدَتْ شَيْئًا أَثَرِيًّا لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا حِفْنَةٌ مِنَ الرِّجَالِ ، وَأُدْمِجَتْ « إِيرْلَنْدَا » فِي الْكِيَانِ « الْبِرِيطَانِيِّ » الْكَبِيرِ ، وَأَصْبَحَ لَهَا نُوَّابٌ يُمَثِّلُونَهَا فِي مَجْلِسِ الْعُمُومِ .

وَلَمَّا تَنَبَّهَ الشُّعُورُ الْوَطَنِيُّ لَدَىٰ بَعْضِ رِجَالِهَا ، وَحَاوَلُوا أَنْ يَبْعَثُوا أُمَّتَهُمْ مِنْ جَدِيدٍ ، وَأَنْ يُحَقِّقُوا لَهَا شَخْصِيَّتَهَا الْمُمَيَّزَةَ ، وَأَنْ يَفْصِلُوهَا عَنِ الشَّعْبِ « الْبِرِيطَانِيِّ » ، رَأَوْا أَنَّ مَنْطِقَ الْحَيَاةِ لَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ ذَلِكَ ؛ مَا دَامَتْ لُغَتُهُمْ هِيَ اللُّغَةُ « الْإِنْكِلِيزِيَّةُ » ...

وَمَا دَامَ شَعْبُهُمْ يَجْهَلُ لُغَتَهُ الَّتِي تُمَيِّزُ شَخْصِيَّتَهُ ، وَتُبْرِزُ كِيَانَهُ ، وَتُحَقِّقُ وَحْدَتَهُ ...

وَأَسْعَفَهُمُ الْقَدَرُ بِمُعَلِّمٍ يُتْقِنُ لُغَةَ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ ؛

دَفَعَهُ شُعُورُهُ بِوَاجِبِهِ إِلَىٰ وَضْعِ الْكُتُبِ السَّهْلَةِ الَّتِي تُيَسِّرُ لِمُوَاطِنِيهِ تَعَلُّمَ اللُّغَةِ ... فَهَبُّوا يُسَاعِدُونَهُ عَلَىٰ نَشْرِهَا ، وَيُؤَازِرُونَهُ فِي تَعْلِيمِهَا ؛ حَتَّىٰ اسْتَعَادَتْ مَكَانَهَا مِنْ أَلْسِنَةِ الْمُوَاطِنِينَ ، وَعَمَّتْ بَيْنَهُمْ وَشَاعَتْ ... وَكَانَتْ عَامِلًا قَوِيًّا فِي إِحْيَاءِ أُمَّتِهِمْ ، وَاسْتِقْلَالِ بِلَادِهِمْ ، وَاسْتَعَادَةِ كِيَانِهِمْ .

وَلَمَّا تَمَّ لِإِيرْلَنْدَا ذَلِكَ ، قَدَّرَ الْمُوَاطِنُونَ لِلْمُعَلِّمِ الْعَظِيمِ يَدَهُ عَلَيْهِمْ ، وَأَكْبَرُوا أَثَرَهُ فِي تَحْرِيرِ بِلَادِهِمْ ؛ فَكَافَأُوهُ عَلَىٰ صَنِيعِهِ بِأَنِ انْتَخَبُوهُ لِيَكُونَ أَوَّلَ رَئِيسٍ لِجُمْهُورِيَّةِ « إِيرْلَنْدَا » الْحُرَّةِ ... ذَلِكَ الْمُعَلِّمُ هُوَ الرَّئِيسُ « دِيڤَالِيرَا » .

* * *

وَلُغَتُنَا الْعَرَبِيَّةُ ـ أَيُّهَا السَّادَةُ ـ لَيْسَتْ قَوْمِيَّةً فَحَسْبُ ، وَإِنَّمَا هِيَ لُغَةٌ دِينِيَّةٌ أَيْضًا .

فَهِيَ كَمَا تُجَمِّعُ الشُّعُوبَ الْعَرَبِيَّةَ حَوْلَهَا ؛ تُجَمِّعُ

حَوْلَ الشُّعُوبِ الْعَرَبِيَّةِ قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ غَيْرِ الْعَرَبِ ، وَتَجْعَلُ مِنْهُمْ سَنَدًا قَوِيًّا لَهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَظَهِيرًا يَدْعَمُ قَضَايَاهَا فِي كُلِّ مَجَالٍ ...

وَعَرَفَ الْعَدُوُّ الْمُتَيَقِّظُ أَثَرَ هَٰذِهِ اللُّغَةِ فِي جَمْعِ الشَّمْلِ الشَّتِيتِ ، وَلَمِّ الشَّعَثِ الْمُتَفَرِّقِ ... وَاسْتَيْقَنَ مِنْ قُدْرَتِهَا عَلَىٰ حِفْظِ كِيَانِ هَٰذِهِ الْأُمَّةِ ، وَدَفْعِهَا إِلَىٰ النُّهُوضِ عَلَىٰ قَدَمَيْهَا ؛ لِتَقِفَ فِي وَجْهِهِ وَوَجْهِ مَطَامِعِهِ .

فَشَنَّ هُجُومَهُ عَلَيْهَا فِي جَمِيعِ الْمَيَادِينِ .

وَالْعَدُوُّ الَّذِي يَمْلِكُ عُلَمَاءَ يُحَطِّمُونَ الذَّرَّةَ ، وَيَرْتَادُونَ الْفَضَاءَ ، وَيُسَخِّرُونَ قُوَىٰ الْكَوْنِ ... يَمْلِكُ طَائِفَةً مِنْ عُلَمَاءِ الِاسْتِعْمَارِ لَا يَقِلُّونَ فِي قُدُرَاتِهِمْ عَنْ عُلَمَاءِ الْكَوْنِ وَالذَّرَّةِ ؛ نَذَرُوا أَنْفُسَهُمْ لِرَسْمِ الْخُطَطِ الَّتِي يَسْتَذِلُّونَ بِهَا الشُّعُوبَ ، وَيَسْتَعْبِدُونَ بِوَاسِطَتِهَا الْأُمَمَ .

* * *

الْعُدْوَانُ عَلَىٰ لُغَةِ الْقُرْآنِ

عَرَفَ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ ـ كَمَا أَشَرْنَا مِنْ قَبْلُ ـ أَثَرَ هَٰذِهِ اللُّغَةِ فِي بِنَاءِ حَيَاةِ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَقِيمَتَهَا فِي حِفْظِ الْإِسْلَامِ وَفَهْمِ الْقُرْآنِ ... فَجَنَّدُوا لِحَرْبِهَا طَائِفَةً كَبِيرَةً مِنْ دَهَاقِينِهِمْ ...

وَانْدَفَعَ وَرَاءَ هَؤُلَاءِ نَفَرٌ مِنْ أَبْنَاءِ أُمَّتِنَا عَنْ عِلْمٍ أَوْ عَنْ غَيْرِ عِلْمٍ؛ يُؤَيِّدُونَهُمْ فِي دَعْوَتِهِمْ، وَيُظَاهِرُونَهُمْ(١) فِي حَرْبِهِمْ، وَيَدْعُونَ لِلْأَخْذِ بِخُطَطِهِمْ وَمَشْرُوعَاتِهِمْ.

وَقَدْ رَأَىٰ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءُ أَنَّ السَّيْطَرَةَ عَلَىٰ الْأَقْوَامِ لَا تَكُونُ بِالْحَدِيدِ وَالنَّارِ فَحَسْبُ، وَإِنَّمَا تَكُونُ بِالسَّيْطَرَةِ

---

(١) يظاهرونهم: يعاونونهم، ويساعدونهم علىٰ إظهار أمرهم.

عَلَىٰ الْعُقُولِ ... وَأَنَّ السَّبِيلَ إِلَىٰ ذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ بِإِضْعَافِ لُغَةِ الْأُمَّةِ وَمَحْوِهَا؛ حَتَّىٰ تَبْعُدَ الشُّقَّةُ بَيْنَ الشُّعُوبِ وَمَاضِيهَا، وَتَتَقَطَّعَ الْأَسْبَابُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ تُرَاثِهَا...

فَتَغْدُوَ كَإِنْسَانٍ فَقَدَ ذَاكِرَتَهُ، وَأَصْبَحَ لَا يَمْلِكُ مِنْ قُوَّةِ مَاضِيهِ مَا يُعِينُهُ عَلَىٰ دَعْمِ حَاضِرِهِ، وَلَا يَجِدُ فِي تُرَاثِ أَمْسِهِ مَا يَسُدُّ بِهِ حَاجَةَ يَوْمِهِ... وَبِذَلِكَ يَسْتَكِينُ لِسُلْطَانِهَا، وَيَخْضَعُ لِطُغْيَانِهَا؛ بَعْدَ أَنْ بَاتَ شَعْبًا لَا مَاضِيَ لَهُ.

وَابْتَدَأَتْ هَٰذِهِ الْحَرْبُ بِأَنْ فَرَضَ «الْفَرَنْسِيُّونَ» عَلَىٰ أَبْنَاءِ «الْجَزَائِرِ» الْمُسْلِمَةِ لُغَتَهُمُ «الْفَرَنْسِيَّةَ»، وَحَرَّمُوا تَدْرِيسَ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْمَدَارِسِ وَالْمَعَاهِدِ...

وَحَارَبُوا الْقُرْآنَ عَلَىٰ أَنَّهُ كِتَابُ الْعَرَبِيَّةِ الْأَكْبَرُ، وَحَارِسُهَا الْأَمِينُ، وَرُكْنُهَا الرَّكِينُ... حَتَّىٰ لَمْ يَبْقَ لِهَٰذِهِ اللُّغَةِ وَقُرْآنِهَا مِنْ مَلْجَإٍ إِلَّا الْكَتَاتِيبُ وَبَعْضُ الْمَدَارِسِ الدِّينِيَّةِ الْفَقِيرَةِ... وَلَوْلَا أَنْ تَدَارَكَتْهَا جَمْعِيَّةُ الْعُلَمَاءِ

الْمُسْلِمِينَ بِالْجَزَائِرِ، وَعَلَىٰ رَأْسِهَا الْعَالِمُ الْمُجَاهِدُ الْمُصْلِحُ الشَّيْخُ عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ بَادِيسٍ(١)، وَهَبَّتْ تُنْشِئُ الْمَكَاتِبَ لِتَحْفِيظِ الْقُرْآنِ، وَالْمَدَارِسَ لِتَعْلِيمِ الدِّينِ وَاللُّغَةِ؛ لأَصَابَ مِنْهَا الْعَدُوُّ مَقْتَلًا.

* * *

وَفَرَضَ «الْإِنْكِلِيزُ» لُغَتَهُمْ عَلَىٰ «مِصْرَ» أَيْضًا، وَجَعَلُوهَا لُغَةَ التَّعْلِيمِ مُنْذُ السَّنَةِ الْأُولَىٰ فِي الْمَرْحَلَةِ الِابْتِدَائِيَّةِ إِلَىٰ نِهَايَةِ التَّعْلِيمِ الْعَالِي؛ تُدَرَّسُ بِهَا الْمَوَادُّ كُلُّهَا، وَتُؤَدَّىٰ بِهَا الِامْتِحَانَاتُ جَمِيعُهَا.

وَقَدْ أَدَّىٰ ذَلِكَ إِلَىٰ اسْتِقْدَامِهِمْ مُعَلِّمِينَ «إِنْكِلِيزًا» يَعْمَلُونَ عَلَىٰ صَهْرِ أَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْبَوْتَقَةِ الَّتِي أَعَدُّوهَا لَهُمْ، وَيَفْتِنُونَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَضَارَتِهِمْ وَمُثُلِهِمْ،

---

(١) عبد الحميد بن محمد بن باديس: رئيس جمعية العلماء من بداية قيامها سنة ١٩٣١م إلىٰ وفاته، وُلِد في «قسنطينة» وأتم دراسته في جامعة الزيتونة بتونس، أصدر مجلة «الشهاب» وله «تفسير القرآن الكريم»، تُوفي سنة ١٩٤٠م.

وَيُرَغِّبُونَهُمْ بِحَضَارَةِ «إِنْكِلْتِرَا» وَتُرَاثِهَا، وَيُزَيِّنُونَ لَهُمْ أَبْطَالَهَا وَمَفَاخِرَهَا.

* * *

وَقَدْ بَلَغَتِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي «مِصْرَ» حِينَ ذَاكَ مَبْلَغًا مِنَ الْهَوَانِ وَالضَّعْفِ؛ جَعَلَ وَزِيرَ الْمَعَارِفِ آنَذَاكَ يَقِفُ فِي وَجْهِ النُّوَّابِ الَّذِينَ طَالَبُوا بِإِحْلَالِ الْعَرَبِيَّةِ مَحَلَّ «الْإِنْكِلِيزِيَّةِ» فِي الْمَرْحَلَةِ الِابْتِدَائِيَّةِ وَيَصِمُهُمْ بِالتَّهَوُّرِ، وَيَصِفُهُمْ بِالِانْسِيَاقِ مَعَ الْعَوَاطِفِ، وَيُبَيِّنُ لَهُمُ اسْتِحَالَةَ الْأَخْذِ بِمُقْتَرَحِهِمْ لِعَجْزِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَنِ الْوَفَاءِ بِالتَّعْلِيمِ، وَقِلَّةِ الْمُعَلِّمِينَ الَّذِينَ يَسْتَطِيعُونَ تَدْرِيسَ الْمَوَادِّ الْمُخْتَلِفَةِ بِالْعَرَبِيَّةِ.

وَلَكِنَّ الْوَزِيرَ أَخْفَقَ فِي إِقْنَاعِ النُّوَّابِ بِوِجْهَةِ نَظَرِهِ، وَأَقَرَّتِ الْجَمْعِيَّةُ التَّشْرِيعِيَّةُ، وُجُوبَ تَعْلِيمِ الْمَوَادِّ الْمُخْتَلِفَةِ فِي الْمَرْحَلَةِ الِابْتِدَائِيَّةِ بِالْعَرَبِيَّةِ بَدَلًا مِنَ

« الْإِنْكِلِيزِيَّةِ » ، الَّتِي ظَلَّتْ تُعَلَّمُ بِهَا أَكْثَرَ مِنْ رُبْعِ قَرْنٍ .

* * *

وَقَدْ عَمِلَ « الْإِنْكِلِيزُ » فِي « السُّودَانِ » ، عَلَىٰ إِبْعَادِ الْعَرَبِيَّةِ عَنْ مَيَادِينِ التَّعْلِيمِ ، وَعَزْلِهَا عَنْ أَلْسِنَةِ الطَّبَقَةِ الْمُثَقَّفَةِ وَالْمُعَدَّةِ لِتَوَلِّي الْقِيَادَةِ فِي مُخْتَلِفِ الْمَيَادِينِ .

فَأَنْشَأُوا كُلِّيَّةَ « غُورْدُنَ » الْإِنْكِلِيزِيَّةَ ، وَحَصَرُوا التَّعْلِيمَ الْعَالِيَ فِيهَا أَوْ كَادُوا ؛ لِيَحْمِلُوا الْمُوَاطِنِينَ عَلَىٰ تَعَلُّمِ اللُّغَةِ « الْإِنْكِلِيزِيَّةِ » فِي الْمَرْحَلَتَيْنِ الِابْتِدَائِيَّةِ وَالثَّانَوِيَّةِ ، إِذَا أَرَادُوا مُتَابَعَةَ تَعْلِيمِهِمُ الْجَامِعِيِّ ...

وَلَوْلَا الْمَعْهَدُ الدِّينِيُّ فِي « أُمِّ دُرْمَانَ » ...

وَلَوْلَا الْمَعَاهِدُ الْمِصْرِيَّةُ الَّتِي فَتَحَتْ صَدْرَهَا رَحِيبًا لِلْإِخْوَةِ الْأَشِقَّاءِ ؛ لَكَانَ لِلسُّودَانِ الْيَوْمَ شَأْنٌ آخَرُ .. يُفْرِحُ الْعَدُوَّ ، وَيُتْرِحُ الصَّدِيقَ .

وَلَوْ أَنَّ « فَرَنْسَا » اسْتَقَرَّتْ فِي « سُورِيَّةَ » وَلَمْ تَنْشَغِلْ

مَعَهَا بِتِلْكَ الثَّوْرَاتِ الَّتِي أَقَضَّتْ مَضَاجِعَهَا ، لَكَانَ لَهَا مِنَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مَوْقِفٌ غَيْرُ الَّذِي كَانَ .

وَلَعَلَّ مِمَّا يُلْقِي الْأَضْوَاءَ عَلَىٰ هَٰذَا الْمُخَطَّطِ الْعُدْوَانِيِّ ، أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءَ الَّذِينَ كَانُوا يُحَارِبُونَ الْعَرَبِيَّةَ بِكُلِّ سِلَاحٍ ، وَيُكِيلُونَ لَهَا التُّهَمَ جُزَافًا ... كَانُوا فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ يُشَجِّعُونَ تَعْلِيمَ اللُّغَةِ « الْكُرْدِيَّةِ » فِي مَدَارِسِ « الْعِرَاقِ » ...

وَيُحْيُونَ اللُّغَةَ « الْبَرْبَرِيَّةَ » فِي أَرْضِ « الْجَزَائِرِ » ، وَيَنْشَطُ عُلَمَاؤُهُمْ فِي وَضْعِ قَوَاعِدَ لَهَا ، وَتَأْلِيفِ كُتُبٍ فِيهَا ، وَتَيْسِيرِ تَعْلِيمِهَا لِلنَّاسِ .

* * *

وَلَيْسَتْ هَٰذِهِ ـ أَيُّهَا السَّادَةُ ـ هِيَ كُلَّ الْحَرْبِ الَّتِي شَنَّهَا الْأَعْدَاءُ عَلَىٰ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَقُرْآنِهَا ... وَإِنَّمَا هِيَ بَعْضُ هَٰذِهِ الْحَرْبِ .

وَلَيْسَ هَٰذَا هُوَ أَكْبَرَ مِعْوَلٍ اسْتُعْمِلَ فِي هَدْمِ صَرْحِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ... وَإِنَّمَا هُوَ أَصْغَرُهَا شَأْنًا، وَأَقَلُّهَا خَطَرًا.

فَلَقَدْ قَادَ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءُ ضِدَّ هَٰذِهِ اللُّغَةِ حَمْلَةً؛ سِلَاحُهَا الْبَاطِلُ، وَعُدَّتُهَا الِافْتِرَاءُ، وَذَخِيرَتُهَا التَّشْكِيكُ.

وَكَانَتِ الْفِرْيَةُ الَّتِي افْتَرَاهَا شَيَاطِينُهُمْ عَلَىٰ هَٰذِهِ اللُّغَةِ أَنَّهَا عَقِيمٌ لَا تَلِدُ، عَجُوزٌ لَا تَقْوَىٰ، بَلِيدَةٌ لَا تَتَطَوَّرُ، صَعْبَةٌ لَا تَرْقَىٰ إِلَيْهَا الْأَفْهَامُ وَلَا تُدْرِكُهَا الْأَوْهَامُ[1].

وَظَلُّوا يَرْفَعُونَ هَٰذِهِ الشِّعَارَاتِ وَيُنَادُونَ بِهَا ... حَتَّىٰ غَدَتْ فِي نَظَرِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُوَاطِنِينَ الْعَرَبِ حَقَائِقَ لَا يَرْقَىٰ إِلَيْهَا الشَّكُّ، وَمُشْكِلَاتٍ تَحْتَاجُ إِلَىٰ حُلُولٍ عَاجِلَةٍ.

* * *

---

(١) الأوهام: ما يقع في الذهن من خواطر وأفكار.

أ . إِحْلَالُ الْعَامِّيَّةِ مَحَلَّ الْفُصْحَىٰ

نَشِطَتِ الأَيْدِي الآثِمَةُ ؛ تَعْمَلُ عَلَىٰ هَدْمِ هَـٰذِهِ اللُّغَةِ تَارَةً فِي السِّرِّ ، وَأُخْرَىٰ فِي الْعَلَنِ ... وَهَبَّتِ النِّيَّاتُ الْمَشْبُوهَةُ ؛ تَكِيدُ لَهَا تَحْتَ سِتَارِ التَّجْدِيدِ وَالإِصْلَاحِ ...

وَكَانَتْ أُولَىٰ هَـٰذِهِ الدَّعَوَاتِ الدَّعْوَةُ إِلَىٰ نَبْذِ الْفُصْحَىٰ ، وَإِحْلَالِ الْعَامِّيَّةِ مَحَلَّهَا ، وَجَعْلِهَا لُغَةَ الْكِتَابِ كَمَا هِيَ لُغَةُ الْخِطَابِ .

وَبَدَأَتْ هَـٰذِهِ الدَّعْوَةُ سَنَةَ وَاحِدَةٍ وَثَمَانِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ وَأَلْفٍ ؛ حِينَ حَضَّتْ مَجَلَّةُ « الْمُقْتَطَفُ »(١) عَلَىٰ جَعْلِ لُغَةِ الْخِطَابِ لُغَةً لِلْكِتَابِ ، وَدَعَتْ رِجَالَ الأَدَبِ وَالْفِكْرِ

---

(١) مجلة المقتطف : إحدىٰ المجلات العربية ، أسسها في بيروت يعقوب صروف وفارس نمر سنة ١٨٧٦م ، ثم نقلاها إلىٰ القاهرة ، توقفت عن الصدور سنة ١٩٥٢م .

إِلَىٰ بَحْثِ ذَلِكَ الاِقْتِرَاحِ وَمُنَاقَشَتِهِ .

ثُمَّ أُثِيرَتْ هَـٰذِهِ الْمَسْأَلَةُ مَرَّةً أُخْرَىٰ فِي مَطْلَعِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِمِائَةٍ وَأَلْفٍ ؛ حِينَ أَلَّفَ « وَيْلَمُور » ـ أَحَدُ الْقُضَاةِ الْإِنْكِلِيزِ فِي الْمَحَاكِمِ الْمُخْتَلِطَةِ فِي « مِصْرَ » ـ كِتَابًا دَعَاهُ « لُغَةَ الْقَاهِرَةِ » حَضَّ فِيهِ عَلَىٰ إِحْلَالِ الْعَامِّيَّةِ مَحَلَّ الْفُصْحَىٰ ، وَنَادَىٰ بِجَعْلِهَا لُغَةَ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ ، وَوَضَعَ لَهَا قَوَاعِدَ وَضَوَابِطَ ...

فَاسْتَقْبَلَتِ « الْمُقْتَطَفُ » الْكِتَابَ بِالثَّنَاءِ وَالتَّقْرِيظِ ، وَقَدَّمَتْهُ إِلَىٰ جَمَاهِيرِ الْقُرَّاءِ ، وَأَشَادَتْ بِهِ وَبِمَا دَعَا إِلَيْهِ .

وَتَلَا هَـٰذَا الْقَاضِيَ الْإِنْكِلِيزِيَّ إِنْكِلِيزِيٌّ آخَرُ هُوَ السَّيِّدُ « وِلْيَمْ وِلْكُوكْس » ـ أَحَدُ مُهَنْدِسِي الرَّيِّ فِي « مِصْرَ » ـ فَدَعَا إِلَىٰ هَجْرِ الْفُصْحَىٰ وَ إِحْلَالِ الْعَامِّيَّةِ مَحَلَّهَا ، وَوَضَعَ دَعْوَتَهُ هَـٰذِهِ مَوْضِعَ التَّنْفِيذِ ؛ فَتَرْجَمَ شَطْرًا كَبِيرًا مِنَ الْإِنْجِيلِ إِلَىٰ اللَّهْجَةِ الْعَامِّيَّةِ ... كَمَا تَرْجَمَ إِلَيْهَا فُصُولًا مِنْ مَسْرَحِيَّاتِ « شِكْسِبِيرَ » .

ثُمَّ تَلَا هَـٰذَيْنِ الْإِنْكِلِيزِيَّيْنِ مُوَاطِنٌ عَرَبِيٌّ ، هُوَ : سَلَامَةُ مُوسَىٰ ؛ فَنَادَىٰ بِمَا نَادَيَا بِهِ .

ثُمَّ ازْدَادَ الدُّعَاةُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ .

* * *

وَلَا أَظُنُّنِي بِحَاجَةٍ لِأَنْ أُنَوِّهَ بِمَقَاصِدِ « وِلْمُور ، وَوِلْيَمْ » فَهِيَ غَيْرُ خَافِيَةٍ عَلَىٰ أَحَدٍ ... وَلَكِنَّنِي أُرِيدُ أَنْ أُقَدِّمَ سَلَامَةَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قُرَّائِنَا الْكِرَامِ ؛ فَقَدْ يَكُونُ فِي مَعْرِفَتِهِ مَا يُلْقِي ضَوْءًا عَلَىٰ الْمَقَاصِدِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي تَكْمُنُ وَرَاءَ هَـٰذِهِ الدَّعْوَةِ ، فَسَلَامَةُ مُوسَىٰ يَقُولُ عَنْ نَفْسِهِ فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِهِ « الْيَوْمُ وَالْغَدُ » :

« كُلَّمَا ازْدَدْتُ خِبْرَةً وَتَجْرِبَةً وَثَقَافَةً تَوَضَّحَتْ أَمَامِي أَغْرَاضِي فِي الْأَدَبِ ، فَهِيَ تَتَلَخَّصُ فِي أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَخْرُجَ مِنْ « آسْيَا » ، وَأَنْ نَلْتَحِقَ بِأُورُبَّا ...

فَإِنِّي كُلَّمَا زَادَتْ مَعْرِفَتِي بِالشَّرْقِ ؛ زَادَتْ كَرَاهِيَتِي

لَهُ ، وَشُعُورِي بِأَنَّهُ غَرِيبٌ عَنِّي ...

وَكُلَّمَا زَادَتْ مَعْرِفَتِي بِأُورُبَّا ؛ زَادَ حُبِّي لَهَا وَتَعَلُّقِي بِهَا ، وَزَادَ شُعُورِي بِأَنَّهَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهَا ...

هَـٰذَا هُوَ مَذْهَبِي الَّذِي أَعْمَلُ لَهُ طَوَالَ حَيَاتِي سِرًّا وَجَهْرًا ... فَأَنَا كَافِرٌ بِالشَّرْقِ مُؤْمِنٌ بِالْغَرْبِ » .

* * *

وَكَانَتْ حُجَجُ الدُّعَاةِ إِلَىٰ الْأَخْذِ بِالْعَامِّيَّةِ وَإِحْلَالِهَا مَحَلَّ الْفُصْحَىٰ ؛ تَدُورُ حَوْلَ الْأُمُورِ التَّالِيَةِ :

أَوَّلًا : ذَلِكَ التَّبَايُنُ[1] الْكَبِيرُ بَيْنَ لُغَةِ الْكِتَابِ وَلُغَةِ الْخِطَابِ ، مِمَّا يَجْعَلُ الْعِلْمَ وَقْفًا عَلَىٰ طَائِفَةٍ مَحْدُودَةٍ مِنَ النَّاسِ .

ثَانِيًا : قُصُورُ الْفُصْحَىٰ عَنِ الْوَفَاءِ بِحَاجَاتِ الْحَضَارَةِ الْمُتَجَدِّدَةِ النَّامِيَةِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ .

---

(١) التباين : التغاير والاختلاف .

ثَالِثًا : صُعُوبَةُ الْفُصْحَىٰ ، وَتَعَذُّرُ إِتْقَانِهَا عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنَ الْجُهُودِ السَّخِيَّةِ الَّتِي تُبْذَلُ فِي هَٰذَا السَّبِيلِ .

رَابِعًا : جُمُودُ الْفُصْحَىٰ ، وَعَدَمُ اسْتِعْدَادِهَا لِلتَّطَوُّرِ .

فَلْنُنَاقِشْ هَٰذِهِ الْحُجَجَ وَاحِدَةً وَاحِدَةً ؛ لِلْكَشْفِ عَنْ زَيْفِهَا ، وَدَحْضِ مَا ادَّعَاهُ الْمُدَّعُونَ مِنْ قُدْرَةِ الْعَامِّيَّةِ عَلَىٰ حَلِّ مُشْكِلَاتِنَا اللُّغَوِيَّةِ [1] ...

وَلْنَبْدَأْ بِمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ مِنْ أَنَّ جَعْلَ الْعَامِّيَّةِ لُغَةً لِلْكِتَابِ يُصَيِّرُ الْعِلْمَ مُشَاعًا بَيْنَ الْمُوَاطِنِينَ الْعَرَبِ ، وَيَقْضِي عَلَىٰ طَبَقِيَّةِ الْمَعْرِفَةِ ... وَلْنُسَائِلْهُمْ عَنِ الْعَامِّيَّةِ الَّتِي يُرِيدُونَنَا أَنْ نَأْخُذَ بِهَا ، أَفَنَأْخُذُ عَامِّيَّةَ « الْعِرَاقِ » الَّتِي لَا يَفْهَمُهَا إِلَّا « الْعِرَاقِيُّونَ » وَحْدَهُمْ ...

أَمْ نَسْتَعْمِلُ عَامِّيَّةَ « الْجَزَائِرِ » الَّتِي تُسْتَغْلَقُ [2] عَلَىٰ أَبْنَاءِ الْعُرُوبَةِ فِي كُلِّ مَكَانٍ ...

---

(١) سنبسط القول في ثالثًا ورابعًا عند الكلام علىٰ تفرد لغتنا وتميزها .
(٢) تستغلق : يعسر فهمها .

أَمْ نُؤْثِرُ[1] عَامِّيَّةَ «الْيَمَنِ»، أَوْ «مِصْرَ»، أَوِ «الشَّامِ»، أَوِ «السُّودَانِ» ؟!.

وَهَبْ أَنَّنَا أَخَذْنَا عَامِّيَّةَ «مِصْرَ» مَثَلًا ؛ أَفَنَخْتَارُ عَامِّيَّةَ «الْقَاهِرَةِ»، أَمْ عَامِّيَّةَ «الصَّعِيدِ» ؟ ... وَبَيْنَهُمَا مِنَ الْفَرْقِ مَا هُوَ أَشَدُّ بُعْدًا مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ الْفُصْحَىٰ وَالْعَامِّيَّةِ ...

وَإِذَا كَانَتِ الْفُصْحَىٰ تَعْزِلُ بَعْضَ أَبْنَاءِ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ عَنْ لُغَةِ الْكِتَابِ، فَإِنَّ الْأَخْذَ بِأَيَّةِ عَامِّيَّةٍ مِنْ هَٰذِهِ الْعَامِّيَّاتِ يَعْزِلُ الْعَرَبَ وَالْمُسْلِمِينَ جَمِيعَهُمْ عَنِ الْعَامِّيَّةِ الْمُصْطَنَعَةِ، وَيَحْرِمُهُمْ مِنَ الِانْتِفَاعِ بِثَمَرَاتِ قَرَائِحِ[2] مُوَاطِنِيهِمْ فِي عَالَمِهِمُ الْإِسْلَامِيِّ الْكَبِيرِ ...

وَإِذَا كَانَ الْغَرَضُ مِنَ الْأَخْذِ بِالْعَامِّيَّةِ هُوَ تَنْشِيطَ الْعِلْمِ وَتَيْسِيرَهُ لِلنَّاسِ ... فَهَلْ يَتَّفِقُ ذَلِكَ مَعَ مَا تُؤَدِّي إِلَيْهِ الدَّعْوَةُ

---

(١) نؤثر : نختار ونفضل .
(٢) القرائح : جمع مفرده قريحة ، وهي ملكة الإبداع في الكلام وإبداء الرأي .

مِنْ وَأْدِ[١] آلَافِ آلَافِ الْكُتُبِ الَّتِي دُوِّنَتْ بِالْفُصْحَىٰ خِلَالَ تَارِيخِنَا الْحَضَارِيِّ التَّلِيدِ[٢]، وَقَتْلِهَا مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ جَنَتْ ... وَقَطْعِ صِلَةِ الْأَبْنَاءِ بِالْآبَاءِ، وَحِرْمَانِ الْأَوَاخِرِ مِنَ الْبِنَاءِ عَلَىٰ أَسَاسِ الْأَوَائِلِ ...

وَالدُّنْيَا كُلُّهَا تُؤْمِنُ أَنَّ الْعِلْمَ تُرَاثُ الْإِنْسَانِيَّةِ الْخَالِدُ؛ يُتِمُّ فِيهِ اللَّاحِقُ مَا بَدَأَهُ السَّابِقُ.

* * *

ثُمَّ مِنْ أَيْنَ لِهَؤُلَاءِ هَٰذِهِ الدَّعْوَىٰ بِقُصُورِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَنِ الْوَفَاءِ بِمَطَالِبِ الْحَيَاةِ، وَعَجْزِهَا عَنِ النُّهُوضِ بِأَعْبَاءِ الْحَضَارَةِ، وَتَفَوُّقِ الْعَامِّيَّةِ عَلَيْهَا فِي ذَٰلِكَ ؟!! ...

مِنْ أَيْنَ لَهُمْ ذَٰلِكَ ؟!! ... وَهِيَ اللُّغَةُ الَّتِي امْتَدَّتْ طَاقَاتُهَا؛ حَتَّىٰ وَسِعَتْ كِتَابَ اللَّهِ لَفْظًا وَغَايَةً ...

وَغَزُرَتْ[٣] مُفْرَدَاتُهَا؛ حَتَّىٰ عَبَّرَتْ عَنْ أَدَقِّ دَقَائِقِ

---

(١) الوأد: هو القتل بدفن الحي تحت التراب.

(٢) التليد: القديم العريق.

(٣) غزرت: كثرت وفاضت.

الْحَيَاةِ ... وَرَحُبَتْ[1] أَسَالِيبُهَا ؛ حَتَّىٰ أَفْصَحَتْ عَنْ أَنْبَلِ الْمَشَاعِرِ ، وَأَسْمَىٰ الْخِلَالِ .

ثُمَّ لَمَّا أَفَاءَ[2] اللَّهُ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْأُمَّةِ بِنِعْمَةِ الْإِسْلَامِ ، وَحَمَلَهَا عَلَىٰ جَنَاحَيِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِلَىٰ مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا ؛ اسْتَطَاعَتِ الْعَرَبِيَّةُ أَنْ تَنْشُرَ ظِلَّهَا الْوَارِفَ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ شُعُوبِ الْأَرْضِ ، وَتَمَكَّنَتْ مِنْ أَنْ تَفْتِنَهُمْ عَنْ لُغَاتِ آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ ...

فَلَمْ يَمْضِ قَرْنَانِ مِنَ الزَّمَانِ ؛ حَتَّىٰ أَصْبَحَتِ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ لُغَةَ سُكَّانِ الرُّقْعَةِ الْفَسِيحَةِ الْمُمْتَدَّةِ بَيْنَ الْمُحِيطِ وَالْخَلِيجِ ، وَذَلِكَ بِالْإِضَافَةِ إِلَىٰ بِلَادِ « الْأَنْدَلُسِ » ...

وَحَتَّىٰ هَبَّ أَبْنَاءُ هَـٰذِهِ الْأَقْوَامِ الْمُسْلِمَةِ مِنْ غَيْرِ الْعَرَبِ ؛ يُؤَلِّفُونَ الْكُتُبَ وَيَضَعُونَ الْقَوَاعِدَ لِحِمَايَةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ لُغَاتِهِمْ ، وَلِصِيَانَةِ فُصْحَاهَا مِنْ عُجْمَةِ أَلْسِنَتِهِمْ .

---

(١) رحبت : اتسعت .

(٢) أفاء اللّه : مَنَّ اللّه بنعمه .

وَمَا أَنْ أَطَلَّ الْعَصْرُ الذَّهَبِيُّ لِبَنِي « الْعَبَّاسِ » عَلَىٰ الْكَوْنِ ، وَعَمَدَ الْخُلَفَاءُ الْعِظَامُ مِنْ بَنِي « الْعَبَّاسِ » إِلَىٰ تَرْجَمَةِ الْعُلُومِ الْأَجْنَبِيَّةِ إِلَىٰ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ؛ حَتَّىٰ اسْتَجَابَتْ لَهُمْ لُغَةُ الْقُرْآنِ أَعْظَمَ الِاسْتِجَابَةِ ...

فَاتَّسَعَتْ لِفَلْسَفَةِ « الْيُونَانِ » ، وَحِكْمَةِ « الْهُنُودِ » ، وَأَدَبِ « الْفُرْسِ » ...

وَوَعَتْ أَعْظَمَ مَا حَفِلَ بِهِ التُّرَاثُ الْإِنْسَانِيُّ مِنْ طِبٍّ ، وَكِيمِيَاءٍ ، وَمَا إِلَيْهِمَا مِنَ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ وَالْمَعَارِفِ .

حَتَّىٰ أَتَىٰ عَلَىٰ أُورُبَّا حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ ؛ أَصْبَحَتْ فِيهِ « طُلَيْطِلَةُ » الْعَرَبِيَّةُ مَهْوَى لِأَفْئِدَةِ طُلَّابِ الْمَعْرِفَةِ مِنْ شَبَابِ أُورُبَّا ، وَمَنْهَلًا يَرْتَوُونَ مِنْ كَوْثَرِهِ ... كَمَا هُوَ الشَّأْنُ الْيَوْمَ بِالنِّسْبَةِ لِجَامِعَاتِ « بَارِيسَ » وَ« لَنْدَنَ » وَ« مُوسْكُو » .

وَلَا تَزَالُ آلَافُ الْكَلِمَاتِ الْحَضَارِيَّةِ فِي اللُّغَاتِ الْأُورُبِّيَّةِ تُشِيرُ إِلَىٰ أَصْلِهَا الْعَرَبِيِّ .

وَبَعْدُ ، فَتِلْكَ خُلَاصَةٌ مُوجَزَةٌ لِلْكَشْفِ عَنْ زَيْفِ حُجَجِ الدُّعَاةِ إِلَىٰ الأَخْذِ بِالْعَامِّيَّةِ وَإِحْلَالِهَا مَحَلَّ الْفُصْحَىٰ ... أَمَّا الْحُجَجُ بِصُعُوبَةِ الْفُصْحَىٰ وَجُمُودِهَا ؛ فَسَنَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا فِيمَا بَعْدُ كَمَا أَشَرْنَا مِنْ قَبْلُ .

* * *

ب . إِحْلَالُ الْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ مَحَلَّ الْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ

تَلَتِ الدَّعْوَةَ إِلَىٰ اصْطِنَاعِ الْعَامِّيَّةِ ؛ دَعْوَةٌ أُخْرَىٰ لَا تَقِلُّ عَنْهَا خَطَرًا ... أَلَا وَهِيَ الدَّعْوَةُ إِلَىٰ نَبْذِ الْحُرُوفِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَإِحْلَالِ الْحُرُوفِ اللَّاتِينِيَّةِ مَحَلَّهَا .

وَقَدْ ظَهَرَتْ هَٰذِهِ الدَّعْوَةُ فِي مَطْلَعِ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ ، وَكَانَ مِنْ أَوَائِلِ الْمُبَشِّرِينَ بِهَا ، الْقَاضِي الْإِنْكِلِيزِيُّ « وِيلْمُور » نَفْسُهُ .

ثُمَّ تَلَاهُ فِي الدَّعْوَةِ إِلَىٰ ذَلِكَ مُوَاطِنٌ عَرَبِيٌّ هُوَ : الْأُسْتَاذُ عَبْدُ الْعَزِيزِ فَهْمِي ؛ فَحَبَّرَ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ كَثِيرًا مِنَ الْمَقَالَاتِ وَالرَّسَائِلِ ، وَتَقَدَّمَ إِلَىٰ مَجْمَعِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِمَشْرُوعٍ كَامِلٍ لِإِحْلَالِ الْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ مَحَلَّ الْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ .

ثُمَّ تَلَا عَبْدَ الْعَزِيزِ فَهْمِي طَائِفَةٌ مِنَ الدُّعَاةِ كَانَ آخِرَهُمْ سَعِيدُ عَقْلٍ... حَيْثُ وَضَعَ هَٰذِهِ الدَّعْوَةَ مَوْضِعَ التَّنْفِيذِ؛ فَأَصْدَرَ كِتَابَهُ «يَارَا» وَهُوَ دِيوَانُ شِعْرٍ نَظَمَهُ بِالْعَامِّيَّةِ، وَطَبَعَهُ بِالْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ فِي مَطْبَعَةِ «أَنْطُوَانَ» فِي «بَيْرُوتَ».

وَكَانَتْ حُجَّةُ الدَّاعِينَ إِلَىٰ الْأَخْذِ بِهَٰذِهِ الْبِدْعَةِ هِيَ أَنَّ رَسْمَ الْكَلِمَاتِ بِالْحَرْفِ الْعَرَبِيِّ لَا تَتَيَسَّرُ مَعَهُ قِرَاءَةُ النُّصُوصِ قِرَاءَةً مُسْتَرْسِلَةً مَضْبُوطَةً... وَأَنَّ الشَّكْلَ الَّذِي اسْتَعَاضَتْ بِهِ الْعَرَبِيَّةُ عَنْ حُرُوفِ الْحَرَكَاتِ، قَدْ أَثْبَتَ الِاسْتِعْمَالُ عَدَمَ غَنَائِهِ؛ لِأَنَّ الشَّكْلَةَ الْمُنْفَصِلَةَ عَنِ الْحَرْفِ كَثِيرًا مَا تَقَعُ عَلَىٰ حَرْفٍ قَبْلَهُ أَوْ حَرْفٍ بَعْدَهُ؛ لِعَدَمِ ضَبْطِ يَدِ الْكَاتِبِ، أَوِ النَّاسِخِ، أَوِ الطَّابِعِ...

وَأَنَّ الْكَاتِبَ الْعَرَبِيَّ إِذَا اسْتَغْنَىٰ عَنِ الشَّكْلِ؛ عَرَّضَ الْقَارِئَ لِقِرَاءَةِ الْكَلِمَةِ عَلَىٰ جَمِيعِ الْحَرَكَاتِ الَّتِي تَحْتَمِلُهَا الْحُرُوفُ...

وَمِنْ هُنَا وَجَبَ ـ فِي نَظَرِهِمْ ـ عَلَىٰ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ أَنْ يَأْخُذُوا بِطَرِيقَةٍ تُيَسِّرُ لَهُمْ كِتَابَةَ لُغَتِهِمْ عَلَىٰ وَجْهٍ لَا تَحْتَمِلُ فِيهِ الْكَلِمَةُ ؛ إِلَّا صُورَةً وَاحِدَةً مِنْ صُوَرِ الْأَدَاءِ ... وَوَجَدُوا أَنَّهُ لَا يَتِمُّ لَهُمْ ذَلِكَ ؛ إِلَّا إِذَا اسْتَبْدَلُوا بِحُرُوفِهِمُ الْعَرَبِيَّةِ الْحُرُوفَ اللَّاتِينِيَّةَ .

* * *

وَدُعَاةُ الْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ يَنْسَوْنَ أَوْ يَتَنَاسَوْنَ مَا يَحُفُّ بِدَعْوَتِهِمْ هَٰذِهِ مِنْ مَخَاطِرَ ، وَمَا يَحُولُ دُونَ تَحْقِيقِهَا مِنْ عَقَبَاتٍ ... وَيَغْفُلُونَ أَوْ يَتَغَافَلُونَ عَنْ أَنَّهَا جُزْءٌ مِنَ الْمُخَطَّطِ الرَّهِيبِ الَّذِي يَهْدِفُ إِلَىٰ مُحَارَبَةِ لُغَةِ الْقُرْآنِ ، وَتَفْرِيقِ الْمُجْتَمِعِينَ عَلَيْهَا ، وَقَطْعِهِمْ عَنْ تُرَاثِهِمُ الْعَرِيقِ .

وَنَحْنُ حِينَ نَنْظُرُ إِلَىٰ هَٰذِهِ الْقَضِيَّةِ نَظْرَةً مَوْضُوعِيَّةً ؛ يَسْتَبِينُ لَنَا فَسَادُهَا لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ ... فَفِي الْعَرَبِيَّةِ تِسْعَةُ أَصْوَاتٍ مُمَثَّلَةٍ فِي تِسْعَةِ حُرُوفٍ ؛ لَا نَظِيرَ لَهَا فِي الْحُرُوفِ اللَّاتِينِيَّةِ وَهِيَ : الْهَاءُ ، وَالْحَاءُ ، وَالْخَاءُ ،

وَالصَّادُ ، وَالضَّادُ ، وَالطَّاءُ ، وَالظَّاءُ ، وَالْعَيْنُ ، وَالْغَيْنُ ... وَقَدْ وَقَفَ أَصْحَابُ هَٰذِهِ الدَّعْوَةِ حَيَارَىٰ أَمَامَ هَٰذِهِ الظَّاهِرَةِ ، وَافْتَرَقَتْ كَلِمَتُهُمْ فِي إِيجَادِ الْحُلُولِ لَهَا .

فَرَأَىٰ عَبْدُ الْعَزِيزِ فَهْمِي أَنَّهُ لَا مَفَرَّ لَهُ مِنْ أَخْذِ هَٰذِهِ الْحُرُوفِ الزَّائِدَةِ بِأَشْكَالِهَا الْعَرَبِيَّةِ ، وَضَمِّهَا إِلَىٰ الْأَبْجَدِيَّةِ اللَّاتِينِيَّةِ الْمُقْتَرَحَةِ ؛ بِحَيْثُ يَجْتَمِعُ فِيهَا خَلِيطٌ عَجِيبٌ مِنَ الْحُرُوفِ الْمُتَنَافِرَةِ فِي الطَّبِيعَةِ وَالشَّكْلِ .

أَمَّا سَعِيدُ عَقْلٍ ؛ فَرَكِبَ لِتَحْقِيقِ دَعْوَتِهِ مَرْكَبًا أَخْشَنَ ؛ حَيْثُ كَوَّنَ الْأَبْجَدِيَّةَ الَّتِي اسْتَعْمَلَهَا فِي كِتَابِهِ « يَارَا » مِنَ الْأَحْرُفِ اللَّاتِينِيَّةِ السِّتَّةِ وَالْعِشْرِينَ ، ثُمَّ أَضَافَ إِلَيْهَا سَبْعَةَ حُرُوفٍ جَدِيدَةٍ اخْتَرَعَهَا مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ ، ثُمَّ ضَمَّ إِلَيْهَا أَحَدَ عَشَرَ حَرْفًا لَاتِينِيًّا ؛ بَعْدَ أَنْ زَادَ عَلَيْهَا طَائِفَةً مِنَ الْإِشَارَاتِ الْخَاصَّةِ لِتُؤَدِّيَ بَعْضَ الْأَصْوَاتِ ...

وَبِذَلِكَ أَصْبَحَ عَدَدُ حُرُوفِ الْأَبْجَدِيَّةِ الْمُخْتَرَعَةِ

أَرْبَعَةً وَأَرْبَعِينَ حَرْفًا ، وَمَعَ هَـٰذَا فَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّنِي عَجَزْتُ عَنْ قِرَاءَةِ سَطْرٍ وَاحِدٍ مِنْ « يَارَا » بِسَبَبِ اسْتِعْمَالِ الْعَامِّيَّةِ مِنْ جِهَةٍ ، وَبِسَبَبِ الْحُرُوفِ الْمُبْتَدَعَةِ الْمُخْتَرَعَةِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ .

* * *

وَأَمْرٌ ثَانٍ يَقِفُ فِي وَجْهِ هَـٰذَا الِاقْتِرَاحِ وَيَقْضِي عَلَىٰ عِلَّةِ وُجُودِهِ ، وَهُوَ أَنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ تُغَايِرُ[١] اللُّغَاتِ الْأُورُبِّيَّةَ الَّتِي تُكْتَبُ بِالْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا لُغَةٌ مُعْرَبَةٌ ؛ تَخْتَلِفُ أَحْوَالُ أَوَاخِرِ الْكَلِمَاتِ فِيهَا بِاخْتِلَافِ مَوَاقِعِهَا مِنَ الْجُمْلَةِ ... وَمِنْ هُنَا كَانَتِ الدَّلَالَةُ عَلَىٰ الْحَرَكَاتِ بِالْحُرُوفِ وَإِثْبَاتُهَا فِي صُلْبِ الْكَلِمَةِ ؛ تُعَرِّضُ الْكَاتِبِينَ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ قَوَاعِدَ النَّحْوِ لِلْوُقُوعِ فِي فَيْضٍ مِنَ الْخَطَإِ ، وَبِذَلِكَ لَا يَسْتَطِيعُ السَّوَادُ مِنْ شَعْبِنَا ، وَالصِّغَارُ مِنْ تَلَامِيذِنَا أَنْ يَكْتُبُوا كَلِمَةً صَحِيحَةً ؛ إِلَّا إِذَا أَدْرَكُوا أَحْكَامَ

---

(١) التغاير : هو الاختلاف ، هذا غير ذاك .

الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ، وَالْحَالِ وَالتَّمْيِيزِ، وَمَبَاحِثَ الْعَدَدِ، وَالْمَمْنُوعِ مِنَ الصَّرْفِ، وَوَقَفُوا عَلَىٰ ضَبْطِ عَيْنِ الْفِعْلِ(١)، وَأَحْكَمُوا نُطْقَ الْأَسْمَاءِ، وَبِذَلِكَ تَسُودُ الْعَامِّيَّةُ عَامَّةَ شَعْبِنَا، وَيُحَالُ دُونَهُمْ وَدُونَ تَعَلُّمِ الْكِتَابَةِ.

* * *

(١) عين الفعل: يزن اللغويون الفعل الثلاثي بأحرف ثلاثة هي «ف. ع. ل» وعين الفعل هو الحرف الأوسط الذي يقابل حرف العين في الميزان، يقال «شَرِبَ» علىٰ وَزن «فَعِلَ»، فعينه هي حرف «الراء».

ج . الضَّرَبَاتُ الْخَفِيَّةُ

لَمَّا أَخْفَقَتْ دَعْوَتَا الْعَامِّيَّةِ وَالْحَرْفِ اللَّاتِينِيِّ الْهَادِفَتَانِ إِلَىٰ الْقَضَاءِ عَلَىٰ لُغَةِ الْقُرْآنِ ، وَيَئِسَ الْخُصُومُ مِنْ بُلُوغِ مَقَاصِدِهِمْ عَنْ هَـٰذِهِ الطَّرِيقِ ؛ عَكَفُوا عَلَىٰ خُطَطِهِمْ يُرَاجِعُونَهَا ... وَعَادُوا إِلَىٰ مَشْرُوعَاتِهِمْ يُعَدِّلُونَهَا .

فَوَجَدُوا أَنَّ الضَّرْبَةَ الْكُبْرَىٰ قَدْ قُوبِلَتْ بِدِفَاعٍ أَكْبَرَ ، فَرَجَّحُوا أَنْ يَعْمَلُوا عَلَىٰ هَدْمِ هَـٰذِهِ اللُّغَةِ بِضَرَبَاتٍ صَغِيرَةٍ تَأْتِيهَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا وَمِنْ خَلْفِهَا ؛ بَدَلًا مِنْ هَدْمِهَا دَفْعَةً وَاحِدَةً فِي ضَرْبَةٍ قَاضِيَةٍ .

فَرُحْنَا نَسْمَعُ دَعْوَةً إِلَىٰ دِرَاسَةِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ عَلَىٰ أَسَاسٍ إِقْلِيمِيٍّ ؛ حَيْثُ يُصْبِحُ بَيْنَ أَيْدِينَا أَدَبٌ « شَامِيٌّ » ،

وَآخَرُ « عِرَاقِيٌّ » ، وَثَالِثٌ « مِصْرِيٌّ » ، وَرَابِعٌ « حِجَازِيٌّ » ، وَخَامِسٌ « نَجْدِيٌّ » ، وَسَادِسٌ « جَزَائِرِيٌّ » ، وَهَكَذَا ...

وَكَمْ أَحْرَجْنَا هَؤُلَاءِ الدُّعَاةَ حِينَ كُنَّا نَسْأَلُهُمْ عَنْ أَبِي الطَّيِّبِ الَّذِي وُلِدَ فِي « الْكُوفَةِ » مِنْ أَرْضِ « الْعِرَاقِ » ، وَغَنَّىٰ أَعْذَبَ أَلْحَانِهِ فِي « حَلَبَ » مِنْ بِلَادِ « الشَّامِ » ، وَصَاغَ أَحْكَمَ قَوَافِيهِ فِي أَرْضِ الْكِنَانَةِ « مِصْرَ » ، وَأَعْطَىٰ أَصْدَقَ تَأَمُّلَاتِهِ فِي بِلَادِ « فَارِسَ » ... أَهُوَ عِرَاقِيٌّ ، أَمْ شَامِيٌّ ؟؟ ...

أَمْ مِصْرِيٌّ ، أَمْ فَارِسِيٌّ ؟؟ ... وَفِي أَدَبِ أَيِّ إِقْلِيمٍ يُمْكِنُ أَنْ يُوضَعَ أَدَبُهُ ؟!! .

وَلَيْسَ أَبُو الطَّيِّبِ بِدْعًا فِي ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا يُشَارِيهِ[1] فِي هَذَا عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنْ أُدَبَائِنَا الْأَفْذَاذِ مِنْ أَمْثَالِ : أَبِي تَمَّامٍ ، وَالْبُحْتُرِيِّ ، وَأَبِي الْعَلَاءِ ، وَمِئَاتٍ غَيْرِهِمْ مِنَ الْكُتَّابِ وَالشُّعَرَاءِ .

* * *

(١) يشاريه : يجاريه ، ويزيد عليه في صفاته .

وَدَعْوَةٌ ثَانِيَةٌ ؛ تَحُضُّ عَلَىٰ الْعِنَايَةِ بِالْأَدَبِ الشَّعْبِيِّ ... عَلَىٰ أَنَّهُ التُّرْجُمَانُ الَّذِي يُعَبِّرُ عَنْ رُوحِ الْجَمَاهِيرِ ، وَهِيَ دَعْوَةٌ تَهْدِفُ إِلَىٰ إِحْيَاءِ الْعَامِّيَّةِ بِطَرِيقٍ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ .

وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّ هَٰذِهِ الدَّعْوَةَ قَدْ أَثْمَرَتْ ثَمَرَتَهَا الْمَرْجُوَّةَ حِينَ أُنْشِئَ فِي بَعْضِ الْجَامِعَاتِ الْعَرَبِيَّةِ كُرْسِيٌّ لِتَدْرِيسِ الْأَدَبِ الشَّعْبِيِّ ، فَأَصْبَحَتْ قِصَّةُ الزِّيرِ ، وَعَنْتَرٍ ، وَسَيْفِ بْنِ ذِي يَزَنٍ ، وَتَغْرِيبَةُ بَنِي هِلَالٍ هِيَ الَّتِي تُدْرَسُ فِي هَٰذَا الْقِسْمِ ... وَقَدْ نَالَ أَحَدُ شَبَابِنَا لَقَبَ دُكْتُورٍ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ لِأَنَّهُ قَدَّمَ بَحْثًا عَنْ قِصَّةِ عَنْتَرٍ .

وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ مُسْتَسَاغًا لَوْ أَنَّنَا انْتَهَيْنَا مِنَ اسْتِخْرَاجِ كُنُوزِنَا الْفَصِيحَةِ كُلِّهَا ، وَفَرَغْنَا مِنْهَا دَرْسًا وَبَحْثًا وَتَحْقِيقًا وَإِخْرَاجًا ، حَتَّىٰ لَمْ يَبْقَ لَدَيْنَا إِلَّا قِصَّةُ عَنْتَرٍ وَالزِّيرِ وَتَغْرِيبَةُ بَنِي هِلَالٍ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ نَلْتَفِتُ إِلَيْهَا ، وَنَعْكُفُ عَلَيْهَا .

* * *

وَدَعْوَةٌ ثَالِثَةٌ ؛ إِلَىٰ اصْطِنَاعِ هَـٰذَا الشِّعْرِ الْمَنْثُورِ الَّذِي نَسْمَعُهُ صَبَاحَ مَسَاءَ، وَالَّذِي أَفْسَحَتْ لَهُ الْمَجَلَّاتُ وَالْجَرَائِدُ مَكَانًا رَحِيبًا عَلَىٰ صَفَحَاتِهَا ... عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ عُزُوفِ النَّاسِ عَنْهُ، وَنُفُورِهِمْ مِنْهُ.

* * *

وَدَعْوَةٌ رَابِعَةٌ ؛ تُزَيِّنُ لِلنَّاسِ تَيْسِيرَ النَّحْوِ الْعَرَبِيِّ، وَذَلِكَ بِإِيجَادِ نَحْوٍ جَدِيدٍ يَقْطَعُ صِلَةَ الْأَبْنَاءِ بِالْآبَاءِ، حَيْثُ ظَهَرَ فِي أَحَدِ الْأَقْطَارِ الْعَرَبِيَّةِ كِتَابُ نَحْوٍ جَدِيدٍ سَمَّاهُ صَاحِبُهُ « الْأَحْرُفِيَّةُ » ؛ فَتَلَقَّتْهُ الصُّحُفُ الْمَشْبُوهَةُ بِالتَّأْيِيدِ، وَتَنَاوَلَتْهُ الْأَقْلَامُ الْمَخْدُوعَةُ بِالتَّقْرِيظِ.

كَمَا ظَهَرَتْ فِي قُطْرٍ عَرَبِيٍّ آخَرَ سِلْسِلَةٌ مِنْ كُتُبِ النَّحْوِ الْمُبْتَدَعِ، وَفُرِضَتْ هَـٰذِهِ السِّلْسِلَةُ عَلَىٰ مَرَاحِلِ التَّعْلِيمِ كُلِّهَا رَدْحًا مِنَ الزَّمَنِ ... وَقَدْ بَلَغَ هَـٰذَا النَّحْوُ حَدًّا مِنَ الْبُعْدِ عَنْ نَحْوِنَا الْمَعْرُوفِ، جَعَلَ عَالِمًا كَبِيرًا وَمُؤَلِّفًا مِنْ كِبَارِ مُؤَلِّفِي النَّحْوِ، يَقُولُ فِي حَدِيثٍ خَاصٍّ :

إِنَّهُ اضْطُرَّ لِلاسْتِعَانَةِ بِمُدَرِّسٍ مِنْ مُدَرِّسِي وَزَارَةِ الْمَعَارِفِ لِيُسَاعِدَ أَوْلَادَهُ عَلَىٰ فَهْمِ النَّحْوِ الْجَدِيدِ ؛ بَعْدَ أَنْ عَجَزَ هُوَ نَفْسُهُ عَنْ مُسَاعَدَةِ أَوْلَادِهِ فِي ذَٰلِكَ .

وَقَدْ عَمَدَ الْمَسْئُولُونَ فِي هَٰذَا الْقُطْرِ إِلَىٰ إِلْغَاءِ هَٰذَا النَّحْوِ ؛ بَعْدَ أَنْ تَصَدَّىٰ الْغَيَارَىٰ عَلَىٰ اللُّغَةِ إِلَىٰ كَشْفِ مَسَاوِئِهِ وَبَيَانِ زَيْفِهِ .

* * *

وَدَعْوَةٌ خَامِسَةٌ ؛ إِلَىٰ الْإِبْقَاءِ عَلَىٰ الْفُصْحَىٰ مَعَ إِلْغَاءِ الْإِعْرَابِ مِنْ أَوَاخِرِ الْكَلِمِ ، وَقَدْ وَجَدَتْ هَٰذِهِ الدَّعْوَةُ طَرِيقَهَا إِلَىٰ مَدَارِسِ بَعْضِ الْأَقْطَارِ الْعَرَبِيَّةِ ... فَقَدْ كُتِبَتْ لِي زِيَارَةُ أَحَدِ هَٰذِهِ الْأَقْطَارِ مُنْذُ سَنَوَاتٍ قَرِيبَةٍ زِيَارَةً رَسْمِيَّةً ، وَأُتِيحَ لِي أَنْ أَزُورَ بَعْضَ مَدَارِسِ هَٰذَا الْقُطْرِ وَأَنْ أَسْتَجْوِبَ طُلَّابَهُ ، وَكَانَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَوْضُوعٌ يَقْرَؤُونَهُ ، وَكَانَ عُنْوَانُ الْمَوْضُوعِ : « مَطَرٌ يُنْبِتُ الذَّهَبَ » وَقَدْ قَرَأَ الطَّالِبُ الْعُنْوَانَ مُسَكِّنًا أَوَاخِرَ كَلِمَاتِهِ الثَّلَاثِ ، عَلَىٰ الرَّغْمِ

مِنْ أَنَّهَا كَانَتْ مَشْكُولَةً ، فَقَالَ : « مطرْ ينبتْ الذهبْ » .

فَقُلْتُ لَهُ : أَشْكِلْ أَوَاخِرَ الْكَلِمَاتِ ؛ فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِي ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ مَا قُلْتُهُ لَهُ ، فَأَعَدْتُ عَلَيْهِ الطَّلَبَ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ بِصِيَغٍ مُخْتَلِفَةٍ ؛ اسْتَنْفَدْتُ فِيهَا كُلَّ مَا أَمْلِكُهُ مِنْ قُدْرَةٍ فِي التَّعْبِيرِ ، فَمَا كَانَ مِنْ أَحَدِ مُرَافِقِيَّ ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ كِبَارِ رِجَالِ التَّعْلِيمِ ، إِلَّا أَنِ اقْتَرَبَ مِنِّي وَهَمَسَ فِي أُذُنِي قَائِلًا :

إِنَّ هَؤُلَاءِ الطُّلَّابَ لَا يَعْرِفُونَ الدَّلَالَاتِ الصَّوْتِيَّةَ لِلْحَرَكَاتِ ، وَهُمْ يُسَكِّنُونَ أَوَاخِرَ الْكَلِمَةِ فِي الْمَرْحَلَةِ الِابْتِدَائِيَّةِ كُلِّهَا .

وَمِنْ حُسْنِ الْحَظِّ أَنَّ الْمَسْئُولِينَ عَنِ التَّعْلِيمِ فِي هَٰذَا الْقُطْرِ تَنَبَّهُوا إِلَىٰ خَطَرِ ذَٰلِكَ ، وَأَصْدَرُوا قَرَارَاتٍ تُوجِبُ أَخْذَ التَّلَامِيذِ بِشَكْلِ أَوَاخِرِ الْكَلِمِ ، وَ إِلْزَامَ الْمُعَلِّمِينَ بِذَلِكَ .

* * *

لُغَتُنَا لَيْسَتْ مِلْكًا لِشَعْبٍ بِعَيْنِهِ

قَدْ لَا تَكُونُ هَـٰذِهِ الضَّرَبَاتُ الَّتِي أَشَرْتُ إِلَيْهَا هِيَ جَمِيعُ مَا يَسْتَطِيعُهُ الْخُصُومُ ... وَقَدْ يَكُونُ فِي جُعَبِهِمْ سِهَامٌ أُخْرَىٰ .

وَلَكِنِّي أُقَدِّرُ أَنَّهُمْ غَفَلُوا عَنْ أَنَّ هَـٰذِهِ اللُّغَةَ لَيْسَتْ مِلْكًا لِشَعْبٍ بِعَيْنِهِ ... وَإِنَّمَا هِيَ تُرَاثُ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا عَلَىٰ اخْتِلَافِ دِيَارِهِمْ وَأَقْطَارِهِمْ ... يَنْهَلُونَ مِنْ مَوَارِدِهِ ، وَيَتَزَوَّدُونَ مِنْ مَعَارِفِهِ ، وَيَتَرَنَّمُونَ بِشِعْرِهِ وَنَثْرِهِ ، وَيَتَمَثَّلُونَ بِحِكَمِهِ وَأَمْثَالِهِ ، وَيَهْتَدُونَ بِعِبَرِهِ وَعِظَاتِهِ ، وَيُغَذُّونَ عَوَاطِفَهُمْ بِمَا وَعَاهُ مِنْ آيَاتِ الْفَنِّ وَالْجَمَالِ ...

وَأَنَّهُمْ أَسْهَمُوا جَمِيعًا عَبْرَ تَارِيخِهِمُ الطَّوِيلِ فِي إِقَامَةِ أَرْكَانِهِ ، وَإِحْكَامِ بُنْيَانِهِ ...

وَعَمِلُوا يَدًا وَاحِدَةً خِلَالَ الْعَوَاصِفِ الْهُوجِ، وَالْمِحَنِ السُّودِ عَلَىٰ صِيَانَتِهِ مِنْ عَبَثِ الْعَابِثِينَ، وَحِفْظِهِ مِنْ عُدْوَانِ الْعَادِينَ...

وَبَذَلُوا كُلَّ مَا مَلَكُوهُ مِنْ طَاقَةٍ وَجَهْدٍ لِمَدِّهِ بِأَفْضَلِ مَا أَنْتَجَتْهُ قَرَائِحُهُمْ، وَتَزْوِيدِهِ بِأَكْرَمِ مَا أَعْطَتْهُ عُقُولُهُمْ؛ حَتَّىٰ غَدَا عَمَلًا إِنْسَانِيًّا كَبِيرًا، تَعْتَزُّ بِهِ الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَتَفْخَرُ بِهِ، وَيَشْعُرُ كُلُّ فَرْدٍ مِنْ أَبْنَائِهَا؛ أَنَّ هَٰذَا التُّرَاثَ قِطْعَةٌ مِنْ كِيَانِهِ، وَبُضْعَةٌ مِنْ فُؤَادِهِ، وَوَسِيلَةٌ إِلَىٰ بَقَائِهِ... لِأَنَّ فِيهِ حَقِيقَتَهُ وَحَقِيقَةَ أُمَّتِهِ.

وَإِنَّ تُرَاثًا هَٰذَا شَأْنُهُ؛ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَمْتَدَّ إِلَيْهِ يَدٌ بِالتَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ.

وَأَيُّ تَغْيِيرٍ فِي أُسُسِهِ هُوَ مِنْ حَقِّ شُعُوبِ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ كُلِّهَا يَوْمَ يَجْتَمِعُونَ.

وَهُمْ يَوْمَ يَجْتَمِعُونَ وَيَتَوَحَّدُونَ؛ سَيَكُونُونَ أَشَدَّ

حِرْصًا عَلَىٰ لُغَتِهِمْ مِنْ أَيِّ يَوْمٍ سَلَفَ ...

لِأَنَّهُمْ سَيَعْلَمُونَ آنَذَاكَ أَنَّ اللُّغَةَ هِيَ الَّتِي يَسَّرَتْ لَهُمْ نِعْمَةَ الْوَحْدَةِ؛ فَيَغْدُونَ أَشَدَّ اسْتِمْسَاكًا بِهَا، وَأَعْظَمَ حِرْصًا عَلَيْهَا، وَأَكْثَرَ بِرًّا بِهَا.

* * *

تَفَرُّدُ لُغَتِنَا وَتَمَيُّزُهَا

إِنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ أُعْجُوبَةُ الْأَعَاجِيبِ فِي وَضْعِهَا الْمُحْكَمِ وَبِنَائِهَا الدَّقِيقِ الْمُنَظَّمِ ، فَمَنْ أُتِيحَ لَهُ أَنْ يَسْتَجْلِيَ غَوَامِضَهَا وَيَقِفَ عَلَىٰ دَقَائِقِهَا ؛ أَيْقَنَ أَنَّ هَٰذِهِ اللُّغَةَ الْكَرِيمَةَ قَدْ وُضِعَتْ بِإِلْهَامِ الْحَكِيمِ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ وَعَلَتْ كَلِمَتُهُ .

وَلَيْسَ عَلَىٰ مَنْ أَرَادَ الْوُقُوفَ عَلَىٰ غِنَىٰ لُغَةِ الْقُرْآنِ ، وَالِاسْتِيثَاقَ(١) مِنْ مَبْلَغِ قُدْرَتِهَا عَلَىٰ التَّعْبِيرِ عَنْ شُئُونِ الْحَيَاةِ الْمُخْتَلِفَةِ ؛ إِلَّا أَنْ يَقِفَ عَلَىٰ وَاحِدٍ مِنْ عَشَرَاتِ مُعْجَمَاتِ الْمَعَانِي الَّتِي حَفِلَتْ بِهَا الْمَكْتَبَةُ الْعَرَبِيَّةُ ، وَأَنْ يَتَصَفَّحَ فَهَارِسَ هَٰذِهِ الْمُعْجَمَاتِ . . .

---

(١) الاستيثاق : التأكد من حقيقة الشيء .

فَإِنَّهُ سَيَجِدُ فِيهَا مِنْ غِنَىٰ الْمُفْرَدَاتِ، وَوَفْرَةِ الدَّلَالَاتِ، وَدِقَّةِ التَّعْبِيرِ، وَبَرَاعَةِ التَّصْوِيرِ، مَا يُذْهِلُ لُبَّهُ[1].

وَلَوْ أَخَذْنَا ـ عَلَىٰ سَبِيلِ الْمِثَالِ ـ مَا جَاءَ مِنْ أَثَرِ الْأَشْيَاءِ عَلَىٰ الْيَدِ؛ لَوَجَدْنَا الْعَرَبَ تُفَرِّقُ بَيْنَ هَـٰذِهِ الْآثَارِ تَفْرِيقًا؛ عَزَّ أَنْ تَجِدَ لَهُ نَظِيرًا فِي أَيَّةِ لُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ... فَالْعَرَبُ تَقُولُ:

يَدُ فُلَانٍ مِنَ اللَّحْمِ غَمِرَةٌ... وَمِنَ الزَّيْتِ قَنِمَةٌ...

وَمِنَ السَّمَكِ صَمِرَةٌ... وَمِنَ الشَّحْمِ زَهِمَةٌ...

وَمِنَ الْبَيْضِ زَهِكَةٌ... وَمِنَ الدُّهْنِ زَنِخَةٌ...

وَمِنَ الْخَلِّ خَمِطَةٌ... وَمِنَ الْعَسَلِ لَزِجَةٌ...

وَمِنَ الْفَاكِهَةِ لَزِقَةٌ... وَمِنَ الدَّمِ ضَرِجَةٌ...

---

(١) يذهل لبه: اللب هو العقل، وذهول اللب شدة تحيره.

وَمِنَ الْمَاءِ لَثِقَةٌ ... وَمِنَ الْحَدِيدِ سَهِكَةٌ ...

وَمِنَ الْبَوْلِ وَشِكَةٌ ... وَمِنَ الْوَسَخِ دَرِنَةٌ.

وَكُلُّ ذَلِكَ عَلَىٰ وَزْنِ فَعِلَةٌ[١] إِلَىٰ آخِرِ مَا وَعَتْهُ كُتُبُ اللُّغَةِ فِي هَٰذَا الْبَابِ، وَهُوَ كَثِيرٌ كَثِيرٌ.

كَمَا فَصَّلَتِ الْعَرَبُ الْكَلَامَ عَلَىٰ الْأَمْوَالِ وَأَنْوَاعِهَا، وَجَعَلَتْ لِكُلِّ نَوْعٍ اسْمًا خَاصًّا بِهِ:

فَإِذَا كَانَ الْمَالُ مَوْرُوثًا فَهُوَ: تِلَادٌ.

فَإِذَا كَانَ مُكْتَسَبًا فَهُوَ: طَارِفٌ.

فَإِذَا كَانَ مَدْفُونًا فِي الْأَرْضِ فَهُوَ: رِكَازٌ.

فَإِذَا كَانَ ذَهَبًا وَفِضَّةً فَهُوَ: صَامِتٌ.

فَإِذَا كَانَ إِبِلًا وَغَنَمًا فَهُوَ: نَاطِقٌ.

فَإِذَا كَانَ ضَيْعَةً وَمُسْتَغَلًّا فَهُوَ: عَقَارٌ.

---

(١) فقه اللُّغَة: ٨٨.

وَفِي أَسْمَاءِ الْحُمَّيَاتِ ؛ قَالَتِ الْعَرَبُ :

إِذَا كَانَتِ الْحُمَّىٰ لَا تَدُورُ بَلْ تَكُونُ نَوْبَةً وَاحِدَةً ، فَهْيَ : حُمَّىٰ يَوْمٍ ... فَإِذَا كَانَتْ نَائِبَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ ، فَهْيَ : الْوِرْدُ ... فَإِذَا كَانَتْ تَنُوبُ يَوْمًا وَيَوْمًا لَا ، فَهْيَ : الْغِبُّ ... فَإِذَا كَانَتْ تَنُوبُ يَوْمًا وَيَوْمَيْنِ لَا ، ثُمَّ تَعُودُ فِي الرَّابِعِ ، فَهْيَ : الرِّبْعُ ... فَإِذَا دَامَتْ وَأَقْلَقَتْ وَلَمْ تُقْلِعْ ، فَهْيَ : الْمُطْبِقَةُ ... فَإِذَا قَوِيَتْ وَاشْتَدَّتْ حَرَارَتُهَا وَلَمْ تُفَارِقِ الْبَدَنَ ، فَهْيَ : الْمُحْرِقَةُ ... فَإِذَا دَامَتْ مَعَ الصُّدَاعِ أَوِ الثِّقَلِ فِي الرَّأْسِ ، وَالْحُمْرَةِ فِي الْوَجْهِ وَكَرَاهَةِ الضَّوْءِ ، فَهْيَ : الْبِرْسَامُ .

* * *

وَغِنَىٰ الْعَرَبِيَّةِ هَٰذَا لَيْسَ وَقْفًا عَلَىٰ شُؤُونِ الْحَيَاةِ الْمَادِيَّةِ وَحْدَهَا ؛ وَإِنَّمَا هُوَ مُتَوَافِرٌ فِي الشُّؤُونِ الْمَعْنَوِيَّةِ أَيْضًا .

فَالشَّجَاعَةُ لَهَا عِنْدَ الْعَرَبِ دَرَجَاتٌ ، وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ لَفْظٌ خَاصٌّ بِهَا ...

وَالْجُودُ لَهُ مَرَاتِبُ ، وَلِكُلِّ مَرْتَبَةٍ كَلِمَةٌ تُؤَدِّيهَا ...

وَالْغَضَبُ لَهُ مَرَاحِلُ ، وَلِكُلِّ مَرْحَلَةٍ حَرْفٌ يُعْرِبُ عَنْهَا . وَهَكَذَا ...

وَمَنْ يَقِفْ عَلَىٰ كُتُبِ فِقْهِ اللُّغَةِ يَجِدْ لِكُلِّ مَعْنًى يَجُولُ فِي ذِهْنِهِ لَفْظًا ، وَلِكُلِّ سُؤَالٍ يَدُورُ فِي خَلَدِهِ[١] جَوَابًا .

* * *

وَقَدْ يَقُولُ فَرِيقٌ مِمَّنْ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ :

إِنَّنَا لَا نُمَارِي[٢] فِي قُدْرَةِ هَٰذِهِ اللُّغَةِ عَلَىٰ الْوَفَاءِ بِمَطَالِبِ الْإِنْسَانِ الْمَعَاشِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ ، وَلَكِنْ مِنْ أَيْنَ لِهَٰذِهِ اللُّغَةِ أَنْ تَفِيَ بِحَاجَاتِ عَصْرِ الذَّرَّةِ وَالْفَضَاءِ ؟!! ...

---

(١) الخَلَد : البال والنفس.

(٢) لا نماري : لا نشك.

وَهِيَ لُغَةٌ نَبَتَتْ أُصُولُهَا فِي الصَّحْرَاءِ ...

وَنَمَتْ فُرُوعُهَا فِي بِيئَاتٍ لَمْ تُدْرِكْ عَصْرَ الْبُخَارِ وَالْكَهْرَبَاءِ ... فَضْلًا عَنْ عَصْرِ الذَّرَّةِ وَالْفَضَاءِ .

وَلِهَؤُلَاءِ نَقُولُ :

مَا إِنْ عَادَتِ الْمَرْكَبَةُ الْقَمَرِيَّةُ الَّتِي أَطْلَقَهَا « الْأَمْرِيكَانُ » إِلَىٰ أُمِّهَا الْأَرْضِ ، وَقَبْلَ أَنْ تَصْحُوَ الْبَشَرِيَّةُ مِنْ دَهْشَتِهَا وَذُهُولِهَا ... كَتَبَ الْعَالِمُ الْأَدِيبُ الدُّكْتُورُ أَحْمَدُ زَكِيٌّ فِي مَجَلَّةِ « الْعَرَبِيِّ » بَحْثًا قَيِّمًا شَيِّقًا مُسْتَفِيضًا عَنْ هَٰذَا الْحَدَثِ الْعَظِيمِ ...

عَبَّرَ فِيهِ بِلُغَةٍ عِلْمِيَّةٍ عَرَبِيَّةٍ فَصِيحَةٍ عَنْ حَقَائِقِ هَٰذِهِ الرِّحْلَةِ وَدَقَائِقِهَا ؛ تَعْبِيرًا يُخَيَّلُ مَعَهُ لِلْمَرْءِ أَنَّنَا نَحْنُ الَّذِينَ صَنَعْنَا مَرْكَبَةَ الْفَضَاءِ لَا « الْأَمْرِيكَانُ » ... وَأَنَّنَا نَحْنُ الَّذِينَ صَعِدْنَا إِلَىٰ الْقَمَرِ لَا هُمْ .

وَهُوَ مَقَالٌ يَدُلُّ عَلَىٰ بَرَاعَةِ كَاتِبِهِ مِنْ جِهَةٍ، كَمَا يَدُلُّ عَلَىٰ عَبْقَرِيَّةِ لُغَةِ الْقُرْآنِ، وَقُدْرَتِهَا غَيْرِ الْمَحْدُودَةِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ.

* * *

وَاللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ إِلَىٰ هَـٰذَا لُغَةٌ ذَاتُ صِيَغٍ ثَابِتَةِ النُّطْقِ، مَعْلُومَةِ الدَّلَالَةِ، فَمَا دَلَّ عَلَىٰ مَنْ قَامَ بِالْفِعْلِ مِنَ «الثُّلَاثِيِّ»(١)؛ صِيغَ عَلَىٰ وَزْنِ «فَاعِلٍ»:

كَعَابِدٍ، وَحَامِدٍ، وَشَاكِرٍ...

وَمَا دَلَّ عَلَىٰ مَنْ وَقَعَ عَلَيْهِ الْفِعْلُ؛ صِيغَ عَلَىٰ وَزْنِ «مَفْعُولٍ»: كَمَعْبُودٍ، وَمَحْمُودٍ، وَمَشْكُورٍ.

وَمَا يُقَالُ فِي اسْمِ الْفَاعِلِ، وَاسْمِ الْمَفْعُولِ...

يُقَالُ فِي اسْمِ الزَّمَانِ، وَالْمَكَانِ، وَالْآلَةِ،

---

(١) الفعل الثلاثي: هو الفعل المكون من ثلاثة أحرف.

وَالتَّعَجُّبِ ، وَالتَّفْضِيلِ .

* * *

ثُمَّ إِنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ تَتَمَتَّعُ بِخَاصَّةِ الِاشْتِقَاقِ الَّتِي حُرِمَتْ مِنْهَا جُلُّ اللُّغَاتِ الْحَيَّةِ ... وَهِيَ خَاصَّةٌ جَعَلَتْ مِنْ لُغَةِ الضَّادِ لُغَةً مَنْطِقِيَّةً ، مِمَّا أَدَّىٰ إِلَىٰ ضَبْطِ نِظَامِهَا ، وَاطِّرَادِ(١) أَحْكَامِهَا ، وَإِغْنَاءِ مَادَّتِهَا ، وَجَعْلِهَا لُغَةً وَلُودًا عَلَىٰ مَرِّ الْعُصُورِ .

فَالِاشْتِقَاقُ هُوَ الَّذِي جَعَلَ أَلْفَاظَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ تَتَجَمَّعُ فِي أُسَرٍ ... وَجَعَلَ لِكُلِّ أُسْرَةٍ حُرُوفًا مُشْتَرَكَةً تَتَوَافَرُ فِي جَمِيعِ أَفْرَادِهَا ... وَمَعْنًى عَامًّا مُشْتَرَكًا يَشِعُّ مِنْ سَائِرِ مُفْرَدَاتِهَا ...

ثُمَّ تَنْفَرِدُ كُلُّ كَلِمَةٍ مِنْ كَلِمَاتِ الْأُسْرَةِ بِصِيغَةٍ خَاصَّةٍ تُمَيِّزُهَا عَمَّا عَدَاهَا ، وَبِمَعْنًى جُزْئِيٍّ تَخْتَصُّ بِهِ مِنْ

---

(١) الاطراد : هو التتابع والتسلسل .

دُونِ أَخَوَاتِهَا ... بَيْنَمَا غَلَبَتِ الْفَرْدِيَّةُ عَلَىٰ اللُّغَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ .

فَلْنَأْخُذْ ـ مَثَلًا ـ مَادَّةَ « النَّشْرِ » فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ؛ فَسَوْفَ نَجِدُ أَنَّ فِي وُسْعِنَا أَنْ نَشْتَقَّ مِنْهَا الْأَفْعَالَ الثَّلَاثَةَ :

نَشَرَ ، وَيَنْشُرُ ، وَانْشُرْ ... كَمَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُوَلِّدَ مِنْهَا اسْمَ الْفَاعِلِ « نَاشِرٌ » ، وَاسْمَ الْمَفْعُولِ « مَنْشُورٌ » ، وَاسْمَ الْآلَةِ « مِنْشَارٌ » ، وَاسْمَ الْمَكَانِ « مَنْشَرٌ » ، وَهَكَذَا ...

بَيْنَمَا لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجِدَ فِي اللُّغَةِ « الْفَرَنْسِيَّةِ » مَثَلًا صِلَةً بَيْنَ الْأَخِ وَأُخْتِهِ ، فَالْأَخُ فِي الْفَرَنْسِيَّةِ Frere وَالْأُخْتُ Soeur وَهُمَا كَلِمَتَانِ مُتَنَافِرَتَانِ فِي النُّطْقِ ؛ مُتَنَاكِرَتَانِ فِي الصِّيغَةِ ، لَا تَمُتُّ إِحْدَاهُمَا إِلَىٰ الْأُخْرَىٰ بِسَبَبٍ .

وَمَا يُقَالُ عَنِ « الْفَرَنْسِيَّةِ » يُقَالُ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً عَنِ « الْإِنْكِلِيزِيَّةِ » ، فَهِيَ لُغَةُ الْفَرْدِيَّةِ وَالشُّذُوذِ .

* * *

وَأَمَّا قَضِيَّةُ جُمُودِ هَٰذِهِ اللُّغَةِ وَعَدَمِ تَطَوُّرِهَا مَعَ الزَّمَنِ ـ كَمَا يُرْجِفُ الْمُرْجِفُونَ[1] ـ فَتِلْكَ قَضِيَّةٌ بَاطِلَةٌ ، وَدَعْوَةٌ تَبْدُو عَلَىٰ ظَاهِرِهَا مَلَامِحُ الرَّحْمَةِ ، وَتَكْمُنُ فِي بَاطِنِهَا صُنُوفُ الْعَذَابِ .

فَلَقَدْ أَمَضَّ[2] أَعْدَاءَ هَٰذِهِ اللُّغَةِ أَنْ تَكُونَ اللُّغَةَ الْوَحِيدَةَ بَيْنَ لُغَاتِ الْأَرْضِ ؛ الَّتِي اتَّصَلَ تَلِيدُ[3] تُرَاثِهَا بِطَرِيفِهِ خِلَالَ خَمْسَةَ عَشَرَ قَرْنًا ؛ بِسِلْسِلَةٍ مُتَمَاسِكَةِ الْحَلَقَاتِ ...

امْتَدَّتْ مُنْذُ النَّابِغَةِ[4] فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِلَىٰ شَوْقِيٍّ[5]

---

(١) المرجفون : الذين يأتون بأخبار كاذبة وأقوال سيئة بقصد إثارة الفتنة .
(٢) أمض : آلم أشد الألم .
(٣) التليد : القديم العريق .
(٤) النابغة الذبياني : هو زياد بن معاوية من فحول شعراء الجاهلية ، كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق « عكاظ » فتقصده الشعراء وتعرض عليه أشعارها ، تُوفي نحو ١٨ قبل الهجرة .
(٥) أحمد شوقي : « ١٨٦٨ ـ ١٩٣٢م » من أشهر شعراء العصر الأخير ولقب بأمير الشعراء ، وهو أول من جود القصص الشعري التمثيلي بالعربية .

فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ ، وَالَّتِي يَسْتَطِيعُ الْمَلَايِينُ مِنْ أَبْنَائِنَا فِي الْعَصْرِ الْحَاضِرِ تِلَاوَةَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَقِرَاءَةَ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ ، وَأَنْ يَفْقَهُوا مَعَانِيَهُمَا ، وَأَنْ يُدْرِكُوا هَدْيَهُمَا ، وَأَنْ يَسْتَشْعِرُوا عَظَمَتَهُمَا ، وَأَنْ يَتَمَلَّوْا مِمَّا حَفِلَا بِهِ مِنْ صَلَاحٍ ، وَإِصْلَاحٍ .

وَأَنْ يَقِفَ هَؤُلَاءِ الْأَبْنَاءُ عَلَىٰ الْآثَارِ الَّتِي خَلَّفَهَا زُهَيْرٌ[١] فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَعَلِيٌّ[٢] فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ ، وَعَبْدُ الْحَمِيدِ[٣] زَمَنَ بَنِي « أُمَيَّةَ » ، وَأَبُو تَمَّامٍ وَالْمُتَنَبِّي فِي عَصْرِ بَنِي « الْعَبَّاسِ » ، وَمَنْ إِلَيْهِمْ مِنْ أُمَرَاءِ الْبَيَانِ ...

وَأَنْ يَنْتَفِعُوا مِمَّا فِي هَٰذِهِ الْآثَارِ مِنْ مَوْعِظَةٍ

---

(١) هو زهير بن أبي سُلمىٰ ، شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات ، يعتبر من أشعر شعراء عصره .

(٢) عَلِيّ : هو عَلِيّ بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٣) هو عبد الحميد الكاتب تُوفي سنة ٧٥٠م ، أول من أنشأ أسلوب الرسائل في الأدب الْعَرَبِيّ ، عمل في بلاط الأمويين ، وخدم مروان بن محمد آخر خلفائهم ، وله ست رسائل أشهرها « رسالة إلىٰ الكتاب » امتاز بلغة متينة وأسلوب رائع .

وَحِكْمَةٍ، وَأَنْ يَتَذَوَّقُوا مَا حَفِلَتْ بِهِ مِنْ فَنٍّ وَجَمَالٍ ...

وَأَنْ يَعِيشُوا التَّجَارِبَ الَّتِي مَرَّتْ بِأَسْلَافِهِمُ الْعِظَامِ، وَأَنْ يَحْيَوْا مَعَهُمْ بِعَوَاطِفِهِمْ وَمَشَاعِرِهِمْ وَعُقُولِهِمْ ...

وَأَنْ يَجْعَلُوا مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ مَرَاكِزَ الْتِقَاءٍ يَجْتَمِعُونَ عِنْدَهَا وَيَتَعَارَفُونَ عَلَىٰ صَعِيدِهَا ... بَيْنَمَا لَا يَسْتَطِيعُ سَوَادُ الشُّبَّانِ الْمُثَقَّفِينَ مِنَ «الْإِنْكِلِيزِ» مَثَلًا قِرَاءَةَ مَا كَتَبَهُ «شِكْسبِيرُ»(١) مُنْذُ ثَلَاثَةِ قُرُونٍ؛ إِلَّا بِمَشَقَّةٍ وَعُسْرٍ.

أَمَّا مَا كُتِبَ قَبْلَ «شِكْسبِيرَ»، فَقَدِ اسْتَحَالَ عَلَيْهِمْ فَهْمُهُ، وَحَالَ دُونَهُمْ وَدُونَهُ ذَلِكَ التَّطَوُّرُ الَّذِي يَدْعُونَنَا إِلَيْهِ، وَيَحُضُّونَنَا عَلَىٰ الْأَخْذِ بِهِ.

وَقَدْ فُتِنَ بِالدَّعْوَةِ إِلَىٰ تَطْوِيرِ هَـٰذِهِ اللُّغَةِ نَفَرٌ كَبِيرٌ مِنْ

(١) وليم شكسبير William Shakespear: «١٥٦٤ - ١٦١٦م» يعتبر من أعظم الشعراء الإنكليز بلا استثناء، وضع عددًا من المسرحيات الشعرية الخالدة.

أَبْنَاءِ أُمَّتِنَا ؛ وَهُمْ نَاسُونَ أَوْ مُتَنَاسُونَ مَا جَرَّهُ تَطَوُّرُ اللُّغَاتِ الْأُورُبِّيَّةِ عَلَىٰ أَصْحَابِهَا مِنْ بَلَاءٍ ... حَيْثُ قَطَّعَ أَوْصَالَهَا ، وَمَزَّقَ وَحْدَتَهَا ...

وَجَعَلَهَا أُمَمًا مُتَعَدِّدَةً ؛ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ أُمَّةً وَاحِدَةً .

* * *

حَقُّ أَبْنَائِنَا عَلَيْنَا

وَبَعْدُ ... فَقَدْ أَوْصَلَ إِلَيْنَا الْآبَاءُ وَالْأَجْدَادُ هَٰذِهِ اللُّغَةَ كَامِلَةً مِنْ غَيْرِ نَقْصٍ ، سَلِيمَةً مِنْ غَيْرِ عِوَجٍ ... وَذَادُوا[١] عَنْهَا خِلَالَ الْمِحَنِ وَالْكَوَارِثِ أَكْرَمَ الذَّوْدِ ...

فَمِنْ حَقِّ أَبْنَائِنَا عَلَيْنَا أَنْ نُؤَدِّيَ إِلَيْهِمُ الْأَمَانَةَ كَامِلَةً ، وَأَنْ نُبَلِّغَهُمُ الرِّسَالَةَ تَامَّةً ، وَأَنْ نُجَاهِدَ مِنْ أَجْلِهِمْ كَمَا جَاهَدَ آبَاؤُنَا مِنْ أَجْلِنَا .

إِنَّ مِنْ حَقِّ أَبْنَائِنَا عَلَيْنَا ؛ أَنْ نُسْكِتَ الْأَفْوَاهَ الَّتِي دَأَبَتْ[٢] عَلَىٰ تَشْكِيكِهِمْ بِلُغَتِهِمْ ، وَجَهَدَتْ عَلَىٰ وَصْفِهَا بِالصُّعُوبَةِ وَنَعْتِهَا بِالْعُسْرِ ... حَتَّىٰ سَاءَ ظَنُّهُمْ بِهَا ، وَقَلَّتْ

---

(١) ذادوا : دافعوا عن الشيء واستماتوا في حمايته .
(٢) الدأب : هو الجد في العمل والتعود عليه بلا ملل .

ثِقَتُهُمْ بِصَلاَحِهَا ، وَرَسَخَ فِي أَذْهَانِهِمْ أَنَّهُمْ جِيلٌ مُبْتَلًى بِهَٰذِهِ اللُّغَةِ ، مَكْدُودٌ[١] فِي تَعَلُّمِهَا ، مُحَمَّلٌ مِنْ أَجْلِهَا مَا لَا طَاقَةَ لَهُ بِهِ .

إِنَّ مِنْ حَقِّ أَبْنَائِنَا عَلَيْنَا ؛ أَنْ نُكَافِحَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُحَاوِلُونَ أَنْ يَضَعُوا عَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً تَحْجُبُهُمْ عَنْ رُؤْيَةِ الأُمُورِ عَلَىٰ حَقِيقَتِهَا ... وَتُشْعِرُهُمْ بِأَنَّ الْحَيَاةَ كُلَّهَا سُهُولَةٌ وَيُسْرٌ ، وَأَنَّ عَلَىٰ الأَشْيَاءِ أَنْ تَتَخَلَّىٰ عَنْ طَبَائِعِهَا مِنْ أَجْلِ مَرْضَاتِهِمْ ، وَأَنَّ فِي مَيَادِينِ الْعَيْشِ أَمْكِنَةً رَحِيبَةً لِغَيْرِ أَصْحَابِ الدَّأَبِ وَالْجِدِّ .

إِنَّ مِنْ حَقِّ أَبْنَائِنَا عَلَيْنَا ؛ أَنْ نُيَسِّرَ لَهُمْ تَعَلُّمَ هَٰذِهِ اللُّغَةِ لَا أَنْ نُمَنِّيَهُمْ بِتَيْسِيرِ اللُّغَةِ نَفْسِهَا ، وَأَنْ نُعْنَىٰ بِهَٰذِهِ اللُّغَةِ عِنَايَةً كَافِيَةً فِي مَدَارِسِنَا ، وَأَنْ يَتَعَاوَنَ مُعَلِّمُونَا وَمُدَرِّسُونَا جَمِيعًا عَلَىٰ تَعْلِيمِهَا مَهْمَا اخْتَلَفَتْ مَوَادُّهُمْ ، وَأَلَا يَكِلُوهَا إِلَىٰ دَرْسِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَمُعَلِّمِهَا وَحْدَهُمَا ...

---

(١) المكدود : المتعب المغلوب علىٰ أمره .

فَإِنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ؛ مَضَتْ قُرُونٌ عَدِيدَةٌ قَبْلَ أَنْ تَصِيرَ الْفُصْحَىٰ لُغَةَ الْكِتَابِ وَالْخِطَابِ ...

وَأَنْ يَضَعُوا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ أَنَّ اللُّغَةَ لَا تُعَلَّمُ إِلَا بِالْمُمَارَسَةِ وَالْمُحَاكَاةِ، وَأَنَّ تِلْمِيذَهُمْ يَأْخُذُ لُغَتَهُ عَنْهُمْ جَمِيعًا، وَأَنَّهُ كَائِنٌ يُحِسُّ الْجَمَالَ فِي التَّعْبِيرِ كَمَا يُحِسُّهُ فِي الْأَشْيَاءِ الْأُخْرَىٰ، وَأَنَّ بِاسْتِطَاعَةِ أَيٍّ مِنْهُمْ أَنْ يَكُونَ أَوْفَرَ نَصِيبًا فِي تَعْلِيمِ اللُّغَةِ لِتَلَامِيذِهِ مِنْ مُعَلِّمِ اللُّغَةِ نَفْسِهَا؛ إِذَا هُوَ عَقَدَ الْعَزْمَ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَسَعَىٰ لَهُ سَعْيَهُ.

إِنَّ مِنْ حَقِّ أَبْنَائِنَا عَلَىٰ رِجَالِ الدَّوْلَةِ؛ أَنْ يُوقِنُوا أَنَّنَا إِذَا عَوَّلْنَا عَلَىٰ الْمَدْرَسَةِ وَحْدَهَا فِي تَعْلِيمِ اللُّغَةِ؛ فَقَدْ تَمْضِي مِائَةُ عَامٍ قَبْلَ أَنْ تَضِيقَ الشُّقَّةُ بَيْنَ الْفُصْحَىٰ وَالْعَامِّيَّةِ ...

وَأَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ فِي وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَىٰ تَعْلِيمِ الْفُصْحَىٰ مَا لَا تَمْلِكُهُ الْمَدَارِسُ ...

وَمِنْ هُنَا وَجَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُحَرِّمُوا عَلَيْهَا اسْتِعْمَالَ

الْعَامِّيَّةِ تَحْرِيمًا قَاطِعًا، وَأَنْ يَحْمِلُوهَا عَلَىٰ اسْتِعْمَالِ الْفُصْحَىٰ فِي جَمِيعِ مَا يُذَاعُ مِنْ تَمْثِيلِيَّاتِنَا، وَمَا يُبَثُّ مِنْ بَرَامِجِنَا، وَمَا تُقَدِّمُهُ الْمَسَارِحُ وَدُورُ «السِّينِمَا» لِرُوَّادِهَا مِنْ رِوَايَاتٍ وَمَسْرَحِيَّاتٍ... حَتَّىٰ لَا يَسْمَعَ النَّاشِئَةُ مِنْهَا مَا يُفْسِدُ عَلَيْهِمْ لُغَتَهُمْ، وَيُشَوِّهُ لَهُمْ نُطْقَهُمْ، وَيُمَكِّنُ لِلْعَامِّيَّةِ مِنْ أَلْسِنَتِهِمْ.

إِنَّ مِنْ حَقِّ أَبْنَائِنَا عَلَىٰ الْحُكُومَاتِ الْعَرَبِيَّةِ؛ أَنْ تَسُنَّ قَوَانِينَ تُلْزِمُ الْمُؤَلِّفِينَ وَالْمُتَرْجِمِينَ بِاسْتِعْمَالِ الْفُصْحَىٰ فِي كُلِّ مَا يُقَدِّمُونَهُ لِلنَّاسِ، وَأَلَّا تَسْمَحَ بِنَشْرِ كِتَابٍ مَهْمَا كَانَتْ صِبْغَتُهُ؛ إِلَّا إِذَا خَضَعَ لِقَوَاعِدِ اللُّغَةِ، وَجَرَىٰ عَلَىٰ أَسَالِيبِهَا... وَأَنْ تَحُولَ دُونَ صُدُورِ الْكُتُبِ الَّتِي تَدْعُو إِلَىٰ التَّحَلُّلِ مِنَ الْفُصْحَىٰ وَتَحُضُّ عَلَىٰ التَّرَخُّصِ فِي أَسَالِيبِهَا، وَتُرَوِّجُ لِلْعَامِّيَّةِ وَتَعْمَلُ عَلَىٰ نَشْرِهَا، وَأَنْ تَنْظُرَ إِلَىٰ هَٰذَا الْمَوْضُوعِ كَمَا تَنْظُرُ إِلَىٰ أَيِّ عَمَلٍ تَخْرِيبِيٍّ؛ يَمَسُّ كِيَانَ الدَّوْلَةِ وَسَلَامَةَ الْأُمَّةِ.

إِنَّ مِنْ حَقِّ أَبْنَائِنَا عَلَيْنَا ؛ أَنْ يُؤْمِنَ أُدَبَاؤُنَا وَحَمَلَةُ الْأَقْلَامِ مِنَّا بِأَنَّ لَهُمُ الْيَوْمَ رِسَالَةً لُغَوِيَّةً إِلَىٰ جَانِبِ رِسَالَتِهِمُ الْفِكْرِيَّةِ ، وَأَنَّ هَـٰذِهِ الرِّسَالَةَ تُحَتِّمُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْثِرُوا الْفَصِيحَ مِنَ الْقَوْلِ وَلَوْ كَانَ مَجْفُوًّا عَلَىٰ الْفَاسِدِ وَلَوْ كَانَ مَأْلُوفًا ، حَتَّىٰ يَأْلَفَ الْأَبْنَاءُ أَسَالِيبَ لُغَتِهِمُ الصَّافِيَةَ ...

وَبِذَلِكَ تَنْسَابُ لُغَةُ الْقُرْآنِ عَلَىٰ كُلِّ شَفَةٍ ، وَتَتَرَدَّدُ عَلَىٰ كُلِّ مَسْمَعٍ ، وَيُتَرَنَّمُ بِهَا فِي كُلِّ مَحْفِلٍ ...

فَتَنْشَغِلُ بِهَا النُّفُوسُ ، وَتَسْتَمْتِعُ بِهَا الْأَفْئِدَةُ ، وَتَأْنَسُ بِهَا الْأَذْوَاقُ ... فَتُصْبِحُ فِي غَدِهَا الْقَرِيبِ كَمَا كَانَتْ فِي أَمْسِهَا الْبَعِيدِ ؛ خَيْرَ لُغَةٍ لِخَيْرِ أُمَّةٍ .

وَاللَّهَ نَسْأَلُ أَنْ يَرْزُقَنَا الْإِخْلَاصَ فِي الْفِكْرِ ، وَالْقَوْلِ ، وَالْعَمَلِ ... وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا(١) .

* * *

(١) انظر أيضًا كتاب «لغة المستقبل» للمؤلف .

مُلْحَقٌ

فِي النَّدْوَةِ الْأَدَبِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي عُقِدَتْ فِي كُلِّيَّةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِالرِّيَاضِ فِي ١٣٩١/١١/٢٥هـ الْمُوَافِقِ ١٩٧٢/١/١٢م؛ حَيْثُ كَانَ الدُّكْتُورُ عَبْدُ الرَّحْمَٰنِ رَأْفَتِ الْبَاشَا ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ ضَيْفَ النَّدْوَةِ؛ وُجِّهَتْ إِلَيْهِ طَائِفَةٌ مِنَ الْأَسْئِلَةِ... وَفِيمَا يَلِي نَصُّ السُّؤَالِ، وَالْخُطُوطُ الْعَرِيضَةُ لِلْإِجَابَةِ عَنْهُ.

* * *

السُّؤَالُ: تُدَرِّسُ بَعْضُ الْجَامِعَاتِ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ الْعُلُومَ بِاللُّغَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ؛ مِنْ إِنْكِلِيزِيَّةٍ، وَفَرَنْسِيَّةٍ، وَنَحْوِهَا، فَمَا رَأْيُكُمْ فِي ذَٰلِكَ؟... وَمَا الْوَاجِبُ عَلَىٰ مُؤَسَّسَاتِ تَعْلِيمِ الْعَرَبِيَّةِ تِجَاهَ هَٰذِهِ الظَّاهِرَةِ؟.

الْـجَوَابُ : الْوَاقِعُ هُوَ أَنَّ جُلَّ الْجَامِعَاتِ فِي الْعَالَـمِ الْعَرَبِيِّ ؛ تُدَرِّسُ الْعُلُومَ التَّجْرِيبِيَّةَ مِنْ فِيزْيَاءَ وَكِيمْيَاءَ وَطِبٍّ ، وَالْعُلُومَ التَّطْبِيقِيَّةَ مِنْ هَنْدَسَةٍ وَزِرَاعَةٍ وَنَحْوِهَا ؛ بِاللُّغَتَيْنِ الأَجْنَبِيَّتَيْنِ : الإِنْكِلِيزِيَّةِ أَوِ الْفَرَنْسِيَّةِ .

وَلِلْمُخَطِّطِينَ لِهَـٰذِهِ الْمُؤَسَّسَاتِ الْعِلْمِيَّةِ الآنِفَةِ الذِّكْرِ ـ وَهِيَ تَشْمَلُ جَامِعَاتِ الْعَالَـمِ الْعَرَبِيِّ كُلِّهِ عَدَا جَامِعَةَ « دِمَشْقَ » فِيمَا أَعْلَمُ ـ حُجَجُهُمْ وَمَنْطِقُهُمْ ... فَإِذَا خُوطِبُوا فِي ذَٰلِكَ ، قَالُوا :

● إِنَّ هَـٰذِهِ الْعُلُومَ أَجْنَبِيَّةُ الْمَنْبَتِ وَالنَّشْأَةِ ، أَجْنَبِيَّةُ الْمَصَادِرِ وَالْمَرَاجِعِ ... وَهَـٰذَا يُوجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُدَرِّسَهَا بِلُغَةِ أَصْحَابِهَا ، وَبِاللُّغَاتِ الَّتِي تَتَوَافَرُ فِيهَا هَـٰذِهِ الْمَصَادِرُ .

● إِنَّ تَدْرِيسَ طُلَّابِنَا هَـٰذِهِ الْعُلُومَ بِالْعَرَبِيَّةِ ؛ يُؤَدِّي إِلَىٰ عَزْلِ أَبْنَائِنَا عَنْ تَيَّارَاتِ الثَّقَافَةِ الْعَالَـمِيَّةِ ، وَيَحُولُ دُونَهُمْ وَدُونَ التَّعَمُّقِ وَالتَّمَكُّنِ .

• ثُمَّ هَلْ فِي وُسْعِ لُغَتِنَا أَنْ تَفِيَ بِحَاجَاتِ هَٰذِهِ الْمَعَارِفِ ، وَأَنْ تُعَبِّرَ عَنْهَا ؟ .

وَنَحْنُ نُجِيبُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ بِمَا يَلِي :

لَا بُدَّ لِمُعَالَجَةِ هَٰذَا الْأَمْرِ مِنْ أَنْ نَعْمَدَ إِلَىٰ تَغْيِيرِ مَفْهُومَاتِنَا وَتَصَوُّرَاتِنَا ، وَأَنْ نَرْفَعَ مِنْ مُسْتَوَىٰ دَرَجَةِ عَزِيمَتِنَا ؛ لِنَنْهَضَ بِهَٰذَا الْإِصْلَاحِ الْكَبِيرِ ...

وَأَوَّلُ مَا يَجِبُ عَلَيْنَا فِي هَٰذَا الصَّدَدِ : أَنْ نُؤْمِنَ بِأَنَّ الثَّقَافَةَ لَا تَتَوَطَّنُ فِي شَعْبٍ مِنَ الشُّعُوبِ مَا دَامَتْ لَا تُعَلَّمُ بِلُغَةِ هَٰذَا الشَّعْبِ ... وَإِنَّمَا تَبْقَىٰ دَخِيلَةً عَلَيْهِ ، أَجْنَبِيَّةً عَنْهُ ؛ تَعِيشُ عَلَىٰ هَامِشِ حَيَاتِهِ ، وَلَا تَتَغَلْغَلُ فِي أَغْوَارِهَا .

مَاذَا كَانَ يَحْدُثُ ؟ لَوْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ حِينَ أَخَذُوا عُلُومَ « الْيُونَانِ » مِنْ طِبٍّ ، وَحِكْمَةٍ ، وَمَنْطِقٍ ، وَغَيْرِهَا فِي أَوَائِلِ نَهْضَتِهِمُ الْعِلْمِيَّةِ عَنِ « الْيُونَانِ » بِلُغَةِ « الْيُونَانِ » ... أَفَمَا كَانُوا يُصْبِحُونَ ذَيْلًا وَتَبَعًا لِلْيُونَانِ ؟ ... وَأَمَا كَانَتْ

لُغَتُهُمْ تَبْقَىٰ لُغَةَ النَّاقَةِ وَالصَّحْرَاءِ وَالرِّيَاحِ السَّافِيَاتِ ؟؟ .

مَاذَا كَانَ يَحْدُثُ لِأُورُبَّا ؟ لَوْ أَنَّهَا أَخَذَتِ الْعُلُومَ عُلُومَ الْعَرَبِ بَعْدَ ذَلِكَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ ، وَلَمْ تَنْقُلْهَا إِلَىٰ لُغَاتِهَا ... أَمَا كَانَتْ تُصْبِحُ ذَيْلًا لِلْمُسْلِمِينَ وَتَبَعًا لَهُمْ ؟؟ .

وَلَكِنَّ الْمُسْلِمِينَ الْأَوَائِلَ أَدْرَكُوا هَٰذَا الَّذِي قُلْنَاهُ ؛ فَنَقَلُوا عُلُومَ « الْيُونَانِ » إِلَىٰ لُغَةِ الْقُرْآنِ ، وَكَذَلِكَ النَّصَارَىٰ نَصَارَىٰ « أُورُبَّا » أَدْرَكُوا هَٰذَا ؛ فَنَقَلُوا عُلُومَ الْعَرَبِ إِلَىٰ لُغَاتِهِمْ ...

فَعَاشَتْ لُغَاتُهُمْ ، وَاسْتَوْطَنَتْ ثَقَافَةُ الْعَرَبِ فِي دِيَارِهِمْ ، وَغَدَتْ مِلْكًا لَهُمْ ؛ كَمَا غَدَتْ ثَقَافَةُ « الْيُونَانِ » مِلْكًا لِلْمُسْلِمِينَ .

عَجَبًا !! لَوْ جَدَّ فَرْعٌ مِنْ فُرُوعِ الْعُلُومِ فِي الْعَصْرِ الْحَاضِرِ فِي « أَمْرِيكَا » أَوْ « إِنْكِلِتْرَا » ؛ فَهَلْ يُدَرَّسُ فِي « رُوسْيَا » بِالْإِنْكِلِيزِيَّةِ ؟! بِحُجَّةِ أَنَّ عَلَىٰ الرُّوسِ أَنْ يَأْخُذُوهُ

بِلُغَةِ أَهْلِهِ ؛ فَهُمْ بِهِ أَعْلَمُ ، وَمَصَادِرُهُمْ فِيهِ أَكْثَرُ .

إِنَّ مَا يَحْتَجُّ بِهِ دُعَاةُ اللُّغَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ مِنْ نَقْصِ الْمَصَادِرِ أَوِ انْعِدَامِهَا فِي بَعْضِ فُرُوعِ الْعُلُومِ ؛ أَمْرٌ مُسَلَّمٌ بِهِ ، وَمُشْكِلَةٌ قَائِمَةٌ لَا مِرْيَةَ فِيهَا ، وَلَـٰكِنْ...

هَبْ أَنَّنَا قَبِلْنَا هَـٰذَا الْعُذْرَ ؛ وَلَمْ نَحْزِمْ أَمْرَنَا مُنْذُ الْيَوْمَ لِتَلَافِيهِ بِتَعْلِيمِ الْعُلُومِ بِلُغَتِنَا ، وَبَذْلِ أَقْصَىٰ جُهُودِنَا لِنَقْلِ الْمَصَادِرِ إِلَىٰ لُغَتِنَا ... إِذَا لَمْ نَفْعَلْ ذَلِكَ مُنْذُ الْيَوْمَ ؛ فَمَتَىٰ نَفْعَلُهُ ؟!! .

وَالْمُشْكِلَةُ تَزْدَادُ كُلَّ يَوْمٍ تَعْقِيدًا ، وَكُلُّ تَأْخِيرٍ يُؤَدِّي إِلَىٰ حِرْمَانِ أُمَّتِنَا مِنْ مُعْطَيَاتٍ كُبْرَىٰ ... فَإِلَىٰ مَتَىٰ يَسْتَمِرُّ ذَلِكَ ؟!! .

ثُمَّ إِنَّ مَرَاجِعَ هَـٰذِهِ الْعُلُومِ مَكْتُوبَةٌ بِالْفَرَنْسِيَّةِ ، وَالْإِنْكِلِيزِيَّةِ ، وَالْأَلْمَانِيَّةِ ، وَالرُّوسِيَّةِ ، وَغَيْرِهَا مِنْ عَشَرَاتِ اللُّغَاتِ ... فَهَلْ نُعَلِّمُ أَبْنَاءَنَا هَـٰذِهِ اللُّغَاتِ جَمِيعَهَا لِلْإِفَادَةِ

مِنْ هَٰذِهِ الْمَصَادِرِ ؟!! أَمْ نَقْتَصِرُ بِهِمْ عَلَىٰ لُغَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ يَقْرَأُونَ مَا كُتِبَ فِيهَا ، وَمَا تُرْجِمَ إِلَيْهَا !... وَلَـٰكِنَّهُمْ لَا يَقْرَأُونَ مَا يُتَرْجَمُ إِلَىٰ لُغَتِهِمْ !! .

وَأَمَّا مَا يَحْتَجُّ بِهِ دُعَاةُ اللُّغَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ مِنْ أَنَّ تَعْلِيمَ هَٰذِهِ الْعُلُومِ بِلُغَاتِهَا الْأَصْلِيَّةِ ؛ يُتِيحُ لِأَبْنَائِنَا فُرَصَ التَّعَمُّقِ فِيهَا ، فَهِيَ دَعْوَىٰ بَاطِلَةٌ ...

ذَلِكَ لِأَنَّ هَٰذَا الَّذِي يَرُومُونَهُ لَا يَتِمُّ ؛ إِلَّا إِذَا تَعَمَّقَ الطَّالِبُ فِي اللُّغَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ تَعَمُّقًا يَقِفُهُ عَلَىٰ الدَّقِيقِ مِنْ أَسَالِيبِهَا ، وَالْخَفِيِّ مِنْ إِشَارَاتِهَا ...

وَذَلِكَ أَمْرٌ يَحْتَاجُ إِلَىٰ عُمْرٍ كَامِلٍ ، وَهْوَ إِذَا تَيَسَّرَ لِوَاحِدٍ ؛ فَإِنَّهُ عَسِيرٌ عَلَىٰ الْكَثْرَةِ الْكَاثِرَةِ مِنْ أَبْنَاءِ أُمَّتِنَا .

ثُمَّ إِنَّ مَا سَيُنْفِقُهُ هَٰذَا الْفَتَىٰ الْعَرَبِيُّ فِي تَعَلُّمِ اللُّغَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ مِنْ عُمْرٍ وَوَقْتٍ ؛ لَوْ أَنْفَقَهُ فِي الْعِلْمِ نَفْسِهِ حِينَ يُتَرْجَمُ لَهُ تَرْجَمَةً وَافِيَةً وَاعِيَةً مُسْتَوْعِبَةً ؛ لَعَادَ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ

ثَقَافَتِهِ وَأُمَّتِهِ بِالْخَيْرِ .

ثُمَّ إِنَّ تَدْرِيسَ أُسْتَاذٍ عَرَبِيِّ اللِّسَانِ لِطُلَّابٍ مِنْ أَبْنَاءِ الْعَرَبِ بِلِسَانِهِمْ ؛ أَجْدَىٰ نَفْعًا وَأَجَدُّ بِوُصُولِ الْمَعَارِفِ إِلَيْهِمْ ... فَالْمُدَرِّسُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِي لُغَتِهِ تَصَرُّفًا لَا يَسْتَطِيعُهُ فِي اللُّغَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ ، وَالطُّلَّابُ يُدْرِكُونَ عَنْ طَرِيقِ هَٰذِهِ اللُّغَةِ مَا لَا يُدْرِكُونَهُ بِاللُّغَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ .

بَلْ إِنَّ تَدْرِيسَ الطُّلَّابِ الْعَرَبِ بِلُغَةٍ أَجْنَبِيَّةٍ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَعُودَ عَلَيْهِمْ بِعُمْقِ الْمَعْرِفَةِ وَاتِّسَاعِهَا ؛ يُؤَدِّي إِلَىٰ ضَحَالَتِهَا وَضَآلَتِهَا ... ذَلِكَ بِأَنَّ عَلَيْهِمْ مُهِمَّتَيْنِ أُولَاهُمَا فَهْمُ مَا يُقَالُ ، ثُمَّ وَعْيُهُ وَاسْتِيعَابُهُ ... وَبَدَلًا مِنْ أَنْ تَقِفَ فِي وَجْهِهِمْ عَقَبَةٌ وَاحِدَةٌ ؛ تَقُومُ فِي وُجُوهِهِمْ عَقَبَتَانِ .

إِنَّ الطُّلَّابَ يُضَيِّعُونَ وَقْتًا كَبِيرًا فِي فَكِّ طَلَاسِمِ(١) اللُّغَةِ ، ثُمَّ يَنْتَقِلُونَ بَعْدَ هَٰذَا الْجُهْدِ الْجَهِيدِ إِلَىٰ الْمَعْرِفَةِ ،

---

(١) فك طلاسم اللغة : أي ترجمتها ونقلها إلىٰ العربية حتىٰ يستطيعوا فهمها .

وَتَلَقِّيهَا ، وَاسْتِيعَابِهَا .

وَأَمَّا مَا يَهْمِسُ بِهِ بَعْضُ هَؤُلَاءِ مِنْ قُصُورِ اللُّغَةِ عَنِ الْوَفَاءِ بِحَاجَاتِ التَّعْلِيمِ ... فَفِرْيَةٌ أَطْلَقَهَا أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ ، وَأَخَذَهَا عَنْهُمْ بَعْضُ أَبْنَاءِ هَٰذِهِ الْأُمَّةِ بِغَرَضٍ أَوْ بِغَيْرِ غَرَضٍ ، وَلِهَؤُلَاءِ نَقُولُ : إِنَّ هَٰذِهِ اللُّغَةَ اخْتُبِرَتْ فِي حَيَاتِهَا الطَّوِيلَةِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ؛ فَمَا وَنَتْ ، وَلَا ضَعُفَتْ ، وَلَا قَصَّرَتْ فِي الِاخْتِبَارِ ...

كَانَتِ الْمَرَّةُ الْأُولَىٰ : حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ كِتَابَهُ الْكَرِيمَ ، حَيْثُ نُقِلَتْ هَٰذِهِ اللُّغَةُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ مِنْ لُغَةِ أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ بَدَوِيَّةٍ إِلَىٰ لُغَةٍ ذَاتِ عَقِيدَةٍ وَشَرِيعَةٍ ، وَنُظُمٍ وَثَقَافَاتٍ ... فَإِذَا بِهَا تَتَّسِعُ لِكِتَابِ اللَّهِ لَفْظًا وَآيَةً ، وَلَا تُقَصِّرُ عَنْ أَدَاءِ مَا حَفِلَ بِهِ وَمَا مَاجَ .

وَكَانَتِ الْمَرَّةُ الثَّانِيَةُ : يَوْمَ فَتَحَ الْعَرَبُ عُيُونَهُمْ عَلَىٰ ثَقَافَاتِ « الْيُونَانِ » ، وَالْهُنُودِ ، وَ« فَارِسَ » ... فَإِذَا بِهَٰذِهِ

اللُّغَةِ تَتَّسِعُ لِذَلِكَ كُلِّهِ وَتَهْضِمُهُ.

وَكَانَتِ الْمَرَّةُ الثَّالِثَةُ: تَجْرِبَةَ جَامِعَةِ «دِمَشْقَ»، وَهِيَ تَجْرِبَةٌ نَاجِحَةٌ رَائِعَةٌ رَائِدَةٌ.

وَلَـكِنْ مَا لَنَا وَلِكُلِّ هَـٰذَا؛ وَفِي «إِسْرَائِيلَ» الرَّدُّ الْحَاسِمُ عَلَىٰ ذَلِكَ كُلِّهِ... فَالْجَامِعَةُ الْعِبْرِيَّةُ فِي «تَلِّ أَبِيبَ»، وَالْمَعَاهِدُ الْعِلْمِيَّةُ، وَالْكُلِّيَّاتُ الْعِلْمِيَّةُ، وَالْمَدَارِسُ الثَّانَوِيَّةُ جَمِيعُهَا تُعَلِّمُ بِالْعِبْرِيَّةِ... تُعَلِّمُ كُلَّ شَيْءٍ ابْتِدَاءً مِنَ الذَّرَّةِ وَالنَّظَائِرِ الْمُشِعَّةِ، وَانْتِهَاءً بِأَصْغَرِ ضَرْبٍ مِنْ ضُرُوبِ الْمَعْرِفَةِ...

وَقَبْلَ الْحَدِيثِ عَمَّا فَعَلَتْهُ «إِسْرَائِيلُ»؛ لَا بُدَّ مِنْ إِعْطَاءِ السَّادَةِ الْمُسْتَمِعِينَ لَمْحَةً سَرِيعَةً عَنِ اللُّغَةِ الْعِبْرِيَّةِ.

فَاللُّغَةُ الْعِبْرِيَّةُ مَرَّتْ بِثَلَاثِ مَرَاحِلَ:

أُولَاهَا: مَرْحَلَةُ الِازْدِهَارِ، وَتَمْتَدُّ مِنَ الْقَرْنِ الْعَاشِرِ

قَبْلَ الْمِيلَادِ إِلَىٰ سُقُوطِ مَمْلَكَةَ « يَهُوذَا » .

وَثَانِيهَا : طَوْرُ الِانْحِلَالِ وَالِاضْمِحْلَالِ ، وَيَبْدَأُ مُنْذُ سُقُوطِ دَوْلَةِ « يَهُوذَا » ؛ حَيْثُ بَدَأَتْ تَغْزُوهَا الْآرَامِيَّةُ حَتَّىٰ قَضَتْ عَلَيْهَا وَجَعَلَتْهَا أَثَرًا بَعْدَ عَيْنٍ ، وَلَمْ يَعُدْ يَعْرِفُهَا إِلَّا نَفَرٌ مَحْدُودٌ يُعَدُّ عَلَىٰ أَصَابِعِ الْيَدَيْنِ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ ، وَلَمْ يَعُدْ يَكْتُبُ بِهَا أَحَدٌ أَوْ يَتَكَلَّمُ بِهَا أَحَدٌ ؛ إِذَا اسْتَثْنَيْنَا مَا كَانَ يُلْقَىٰ فِي دُورِ الْعِبَادَةِ مِنِ ابْتِهَالَاتٍ وَتَرَاتِيلَ ، وَقَدْ دَامَ ذَلِكَ قَرِيبًا مِنْ أَلْفَيْ عَامٍ .

وَثَالِثُهَا : يَبْدَأُ مُنْذُ مَطْلَعِ الْقَرْنِ التَّاسِعَ عَشَرَ [أَيْ نَحْوُ مِائَةٍ وَسَبْعِينَ عَامًا] ؛ حِينَ فَكَّرَ زُعَمَاءُ الْيَهُودِ فِي الْعَالَمِ بِإِقَامَةِ دَوْلَةِ « إِسْرَائِيلَ » ؛ فَعَرَفُوا أَنَّهُ لَا بُدَّ لِكُلِّ شَعْبٍ مِنْ لُغَةٍ ... فَقَرَّرُوا نَشْرَ[1] الْعِبْرِيَّةِ مِنَ الْقُبُورِ ،

---

(١) النشر : البعث والإحياء.

وَبَدَأُوا يَضَعُونَ لِذَلِكَ الْخُطَطَ... وَقَدْ نَفَّذُوا مَا عَزَمُوا عَلَيْهِ.

وَإِذَا بِهَؤُلَاءِ الْيَهُودِ الَّذِينَ جَاءُوا إِلَىٰ «إِسْرَائِيلَ» مِنْ كُلِّ صِقْعٍ مِنْ «إِنْكِلْتِرَا»، وَ«فَرَنْسَا»، وَ«رُوسْيَا»، وَ«الْيَمَنَ»، وَ«الْمَجَرَ»، وَ«بُولُونْيَا»، وَ«سُورِيَا»... إِذَا بِهَؤُلَاءِ كُلِّهِمْ يَتَعَلَّمُونَ الْعِبْرِيَّةَ وَيُعَلِّمُونَهَا أَوْلَادَهُمْ.

وَإِذَا بِالْأَسَاتِذَةِ الْكِبَارِ الَّذِينَ جَاءُوا إِلَىٰ الْجَامِعَةِ الْعِبْرِيَّةِ مِنْ كُلِّ صِقْعٍ، وَتَلَقَّوْا ثَقَافَتَهُمْ بِلُغَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ؛ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ أَنْ يُعَلِّمُوا بِاللُّغَةِ الْعِبْرِيَّةِ... فَمَا قَالَ وَاحِدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ: إِنَّ الْعِبْرِيَّةَ لُغَةٌ مَيْتَةٌ، وَإِنَّ زِمَامَ الثَّقَافَةِ فِي يَدِ الْأَقْوَامِ اللَّاتِينِيَّةِ وَغَيْرِهَا؛ فَلْنُعَلِّمْهَا بِلُغَاتِهَا الْأَصْلِيَّةِ، فَذَلِكَ أَجْدَىٰ عَلَىٰ الطُّلَّابِ الْيَهُودِ وَأَهْدَىٰ سَبِيلًا.

إِنَّ هَٰذِهِ الْحِكْمَةَ الْعَجِيبَةَ الْغَرِيبَةَ الَّتِي أَدْرَكَهَا مَنْ يُخَطِّطُونَ لَنَا؛ لَمْ تَبْلُغْهَا أَفْهَامُ الْيَهُودِ مَعَ شَدِيدِ الْأَسَفِ.

فَالْعَرَبِيَّةُ عَاجِزَةٌ ! وَهِيَ الَّتِي وَسِعَتْ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ !! ... نَعَمْ عَاجِزَةٌ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنْفِ الْحَقِّ وَالْعِلْمِ !!! .

وَاللُّغَةُ الْعِبْرِيَّةُ قَادِرَةٌ !! ... نَعَمْ قَادِرَةٌ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ أَنْفِ ضَيَاعِهَا وَاخْتِفَائِهَا عَنِ الْحَيَاةِ مُدَّةَ أَلْفَيْنِ مِنَ السِّنِينَ !!! .

وَالْيَهُودُ أَغْبِيَاءُ جَهَلَةٌ !! لَا يَعْرِفُونَ كَيْفَ يَخْدِمُونَ أُمَّتَهُمْ ، وَقَوْمِيَّتَهُمْ ، وَدِينَهُمْ ، وَوُجُودَهُمْ .

لَكِنَّ الْيَهُودَ يَعْرِفُونَ أَنَّ تَرْجَمَةَ الْعُلُومِ إِلَىٰ الْعِبْرِيَّةِ ؛ يُحَوِّلُهَا مِنْ لُغَةٍ مَيِّتَةٍ إِلَىٰ لُغَةٍ حَيَّةٍ ، وَيَشْحَنُهَا بِالْمُصْطَلَحَاتِ وَالْأَسَالِيبِ .

الْيَهُودُ يَعْرِفُونَ أَنَّ التَّعْلِيمَ بِلُغَةٍ مِنَ اللُّغَاتِ غَيْرِ لُغَةِ الْأُمَّةِ ؛ هُوَ إِحْيَاءٌ وَتَعْضِيدٌ لِتِلْكَ اللُّغَةِ ، وَهُوَ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ إِمَاتَةٌ لِلُغَةِ الْأُمَّةِ .

كَمْ هُوَ مَعِيبٌ أَنْ يَقِفَ مُدَرِّسٌ عَرَبِيٌّ مَعَ طُلَّابٍ عَرَبٍ فِي مَدِينَةٍ مِنْ كُبْرَيَاتِ مُدُنِ الْعَرَبِ ، أَنْ يَقِفَ مَعَهُمْ خَارِجَ قَاعَةِ الدِّرَاسَةِ يُمَازِحُهُمْ وَيُمَازِحُونَهُ ، وَيُحَدِّثُهُمْ عَنْ شُئُونِ الْحَيَاةِ الْعَادِيَّةِ بِلُغَتِهِمْ ... فَإِذَا دَخَلَ قَاعَةَ الدَّرْسِ وَأَغْلَقَ دُونَهُ وَدُونَهُمُ الْبَابَ ؛ أَخَذَ يَرْطُنُ بِالْفَرَنْسِيَّةِ أَوِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُمْ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ بِلِسَانِ حَالِهِ وَلِسَانِ مَقَالِهِ : لُغَتُكُمْ مَيِّتَةٌ يَا قَوْمُ ، وَأَنْتُمْ تَحْيَوْنَ عَلَىٰ هَامِشِ الْحَيَاةِ ، وَلُغَةُ النَّاسِ حَيَّةٌ وَهُمُ النَّاسُ .

* * *

وَالْآنَ كَيْفَ نُعَالِجُ هَٰذِهِ الْمُشْكِلَةَ ؟ ...

وَهَلْ فِي وُسْعِ الْمُؤَسَّسَاتِ التَّعْلِيمِيَّةِ وَحْدَهَا أَنْ تَنْهَضَ بِذَٰلِكَ ؟ .

لِمُعَالَجَةِ هَٰذِهِ الْمُشْكِلَةِ ؛ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَتَضَافَرَ جُهُودٌ كَثِيرَةٌ ، وَأَنْ تَتَعَاوَنَ أَيْدٍ مُتَعَدِّدَةٌ .

فَعَلَىٰ الدُّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ مُنْفَرِدَةً أَوْ عَلَيْهَا مُجْتَمِعَةً مُمَثَّلَةً بِاللَّجْنَةِ الثَّقَافِيَّةِ فِي جَامِعَةِ الدُّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ؛ أَنْ تُؤَسِّسَ مَجْمَعًا عِلْمِيًّا مُهِمَّتُهُ التَّوَفُّرُ الدَّائِبُ عَلَىٰ تَرْجَمَةِ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ فِي الْفِيزْيَاءِ، وَالْكِيمْيَاءِ، وَالطِّبِّ، وَالذَّرَّةِ، وَكُلِّ لَوْنٍ مِنْ أَلْوَانِ الْمَعْرِفَةِ، وَكُلِّ صِنْفٍ مِنْ صُنُوفِهَا.

وَلَا نَكُونُ فِي هَٰذَا بِدْعًا فِي النَّاسِ؛ وَإِنَّمَا نَسْلُكُ الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَةَ الَّتِي يَسْلُكُهَا الْآخَرُونَ.

وَإِلَىٰ السَّادَةِ الْكِرَامِ بَيَانٌ بِحَرَكَةِ التَّرْجَمَةِ فِي الْعَالَمِ مَنْقُولَةً عَنْ وَقَائِعِ «الْيُونِسْكُو» لِعَامِ ١٩٦٨م:

«الِاتِّحَادُ السُّوفْيَاتِيُّ» تَرْجَمَ «٣٩٦٨» كِتَابًا

«يُوغُوسْلَافِيَا» تَرْجَمَتْ «٣٠٩٥» كِتَابًا

«إِسْبَانْيَا» تَرْجَمَتْ «٢٤٢٩» كِتَابًا

«الْوِلَايَاتُ الْمُتَّحِدَةُ» تَرْجَمَتْ «٢٠٦٩» كِتَابًا

« إِيطَالْيَا » تَرْجَمَتْ « ٢٠١٠ » كِتَابًا

« هُولَنْدَا » تَرْجَمَتْ « ١٨٤٦ » كِتَابًا

« فَرَنْسَا » تَرْجَمَتْ « ١٨٠٩ » كِتَابًا

« تِشيكُوسْلُوفَاكيَا » تَرْجَمَتْ « ١٧٦٢ » كِتَابًا

« الْيَابَان » تَرْجَمَتْ « ١٦٦٩ » كِتَابًا .

ثُمَّ إِنَّ هُنَاكَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ دَوْلَةً تَرْجَمَتْ بَيْنَ خَمْسِمِائَةٍ وَأَلْفِ كِتَابٍ ... أَمَّا الدُّوَلُ الْعَرَبِيَّةُ ؛ فَلَمْ يَرِدْ لَهَا ذِكْرٌ فِي هَٰذِهِ الْإِحْصَائِيَّةِ !! .

« رُوسْيَا » تُتَرْجِمُ ، « أَمْرِيكَا » تُتَرْجِمُ ، « فَرَنْسَا » تُتَرْجِمُ ، دُوَلُ الْأَرْضِ كُلُّهَا تُتَرْجِمُ ...

أَمَّا نَحْنُ ؛ فَمَا لَنَا وَلِهَٰذَا الْعَنَاءِ .

« أَمْرِيكَا » تُوفِدُ طَبِيبًا خَبِيرًا بِالْمَخْطُوطَاتِ ؛ لِيُزَوِّدَهَا بِمَا لَدَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ عُلُومِ الطِّبِّ ؛

فَيَنْكَشِفَ أَنَّ فِي الظَّاهِرِيَّةِ[١] وَحْدَهَا مِائَةً وَعِشْرِينَ كِتَابًا فِي الطِّبِّ وَالصَّيْدَلَةِ، وَيَنْقُلُهَا إِلَىٰ قَوْمِهِ... وَنَحْنُ لَا نَعْرِفُ عَنْهَا شَيْئًا[٢]...

وَالْمَرْءُ حِينَ يَطَّلِعُ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْكُتُبِ يَأْخُذُهُ الْعَجَبُ؛ فَعُلُومُ الطِّبِّ وَالصَّيْدَلَةِ وَمِئَاتُ الْعُلُومِ الْأُخْرَىٰ احْتَاجَتْ إِلَىٰ مُصْطَلَحَاتٍ... وَكُلُّهَا وَجَدَتْ مُصْطَلَحَاتِهَا فِي لُغَتِنَا؛ حَتَّىٰ أَصْبَحَتِ الْمُصْطَلَحَاتُ تُعَدُّ بِالْأُلُوفِ، وَوُضِعَتْ لِهَـٰذِهِ الْمُصْطَلَحَاتِ كُتُبٌ خَاصَّةٌ مِنْهَا:

كِتَابُ «التَّعْرِيفَاتُ» لِلْجُرْجَانِيِّ وَيَقَعُ فِي مِائَةِ صَفْحَةٍ وَنَيِّفٍ، وَ«كَشَّافُ اصْطِلَاحِ الْفُنُونِ» لِلتَّهَانَوِيِّ وَيَقَعُ فِي نَحْوِ أَلْفَيْ صَفْحَةٍ كَبِيرَةٍ، وَكُلِّيَّاتُ أَبِي الْبَقَاءِ،

---

(١) المكتبة الظاهرية في دمشق، وقد كان المؤلف ـ رحمه الله ـ مديرًا لها.
(٢) انظر كتاب «هوامش دفتر المخطوطات» لزهير الشاويش ـ المكتب الإسلامي.

وَغَيْرُهَا .

وَالْمَرْءُ حِينَ يَقِفُ عَلَىٰ الْمُصْطَلَحَاتِ الْعِلْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَوْجُودَةِ فِي اللُّغَاتِ الأَجْنَبِيَّةِ تَأْخُذُهُ الدَّهْشَةُ أَيْضًا .

وَمَنْ يَشَاءُ مِنَ الأُخْوَةِ الْمُسْتَمِعِينَ ؛ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقِفَ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ هَـٰذِهِ الْمُصْطَلَحَاتِ فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِ « شَمْسُ الْعَرَبِ تَسْطَعُ عَلَىٰ الْغَرْبِ » لِلْمُسْتَشْرِقَةِ الأَلْمَانِيَّةِ زِيغْرِيد هُونْكَة .

* * *

الْفِهْرِس

* * *